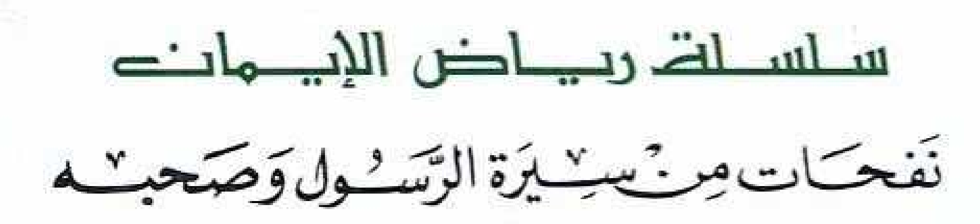


الصِّدِّيقُ وَالفَارُوق

وَشَخصِيَّات أُخرَى

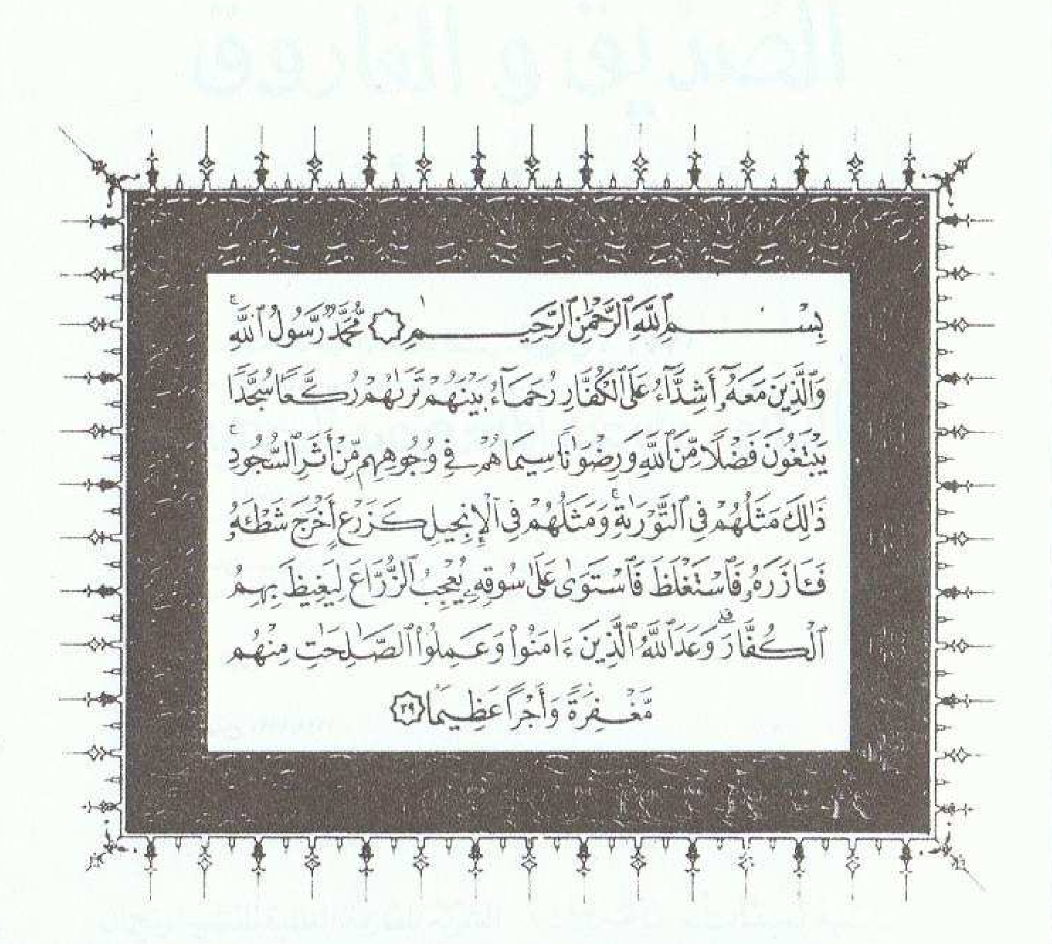
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون

الصِّدِّيق و الفاروق

وشخصيّات أخرى



إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٩

١٠ (أ)، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون
ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩٩

رقم الإيداع ١٩٩٩/٩٥٨٠
الترقيم الدولي ٠ - ٠٤١٢ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة



نفحات من سيرة الرسول وصحبه

الصِّدِّيق والفاروق وشخصيّات أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الصِّدّيقُ
(أبو بَكْر)

نَسِيَ النّاسُ الاسْمُ الَّذي أَطْلَقَهُ أَبَواهُ عَلَيْهِ ، ولَمْ يَعودوا يَذْكُرونَ غَيْرَ الاسْمِ الَّذي سَمّاهُ بِهِ الرَّسولُ ﷺ ، والكُنْيَةِ الَّتي كَنّاهُ بِها .

فَبَعْدَ عامَيْنِ مِنْ ميلادِ الرَّسولِ ﷺ أَنْجَبَ « عُثْمانُ أبو قُحافَةَ » مِنْ زَوْجَتِهِ و ابْنَةِ عَمِّهِ « أُمِّ الخَيْرِ سَلْمى » وَلَدًا ، وبَحَثَ عَنِ اسْمٍ يُطْلِقونَهُ عَلَيْهِ ، واخْتارَ لَهُ « عَبْدَ الكَعْبَةِ » تَيمُّنًا وتَبَرُّكًا . ولَمّا شَبَّ الغُلامُ عَنِ الطَّوْقِ ، وبَدَتْ عَلَيْهِ أَماراتُ النَّجابَةِ ، ومَخايِلُ الذَّكاءِ ، أَخَذَهُ أَبوهُ إلى الكَعْبَةِ ، وأَوْقَفَهُ أَمامَ الأَصْنامِ الَّتي كانَتْ تَمْلأُ ساحَةَ المَسْجِدِ

العَتيقِ ، وقالَ لَهُ : « هَذِهِ آلِهَتُكَ ، فاعْبُدْها وتَقَرَّبْ إلَيْها . » ثُمَّ تَرَكَهُ وانْصَرَفَ .

وَقَفَ الغُلامُ الذَّكِيُّ أَمامَ الأَصْنامِ مَشْدوهًا مُتَحَيِّرًا ، ثُمَّ تَقَدَّمَ خُطْوَةً مِنْ أَحَدِها ، وسَدَّدَ بَصَرَهُ إلَيْهِ ، وقالَ لَهُ :

« هَلْ تَسْتَطيعُ أَنْ تُطْعِمَني إذا كُنْتُ جائِعًا ؟ وأَنْ تَكْسُوَني إذا كُنْتُ عارِيًا ؟ وأَنْ تَشْفِيَني إذا كُنْتُ مَريضًا؟ »

ولَكِنَّ الغُلامَ الذَّكِيَّ لَمْ يَتَلَقَّ مِنَ الصَّنَمِ جَوابًا ، ولَمْ يَلْحَظْ عَلَيْهِ أَنَّهُ فَهِمَ مِنْ كَلامِهِ شَيْئًا ، فَتَقَدَّمَ مِنْهُ أَكْثَرَ ، وراحَ يَتَحَسَّسُهُ بِيَدِهِ ، وإذا بِهِ يَجِدُهُ حَجَرًا قَدْ نُحِتَ عَلى غَيْرِ انْتِظامٍ ، فَدَفَعَهُ بِيَدِهِ فَإذا هُوَ يَنْكَبُّ عَلى وَجْهِهِ ، وإذا الغُلامُ يَفِرُّ مَذْعورًا ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَراهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ فَيَبْطِشَ بِهِ !

بَعُدَ الغُلامُ الذَّكِيُّ عَنِ المَسْجِدِ الحَرامِ ، واطْمَأَنَّ إلى أَنَّ أَحَدًا مِنْ قَوْمِهِ لَمْ يُشاهِدْهُ ، فَهَدَأَتْ نَفْسُهُ ، وأَخَذَ يُفَكِّرُ فيما رَآهُ ، وهُوَ يَقولُ في نَفْسِهِ الَّتي امْتَلأَتْ عَجَبًا :

« هذا صَنَمٌ لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يَعْقِلُ ، ولَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ الأَذى ، ومَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُهُ ويُقَدِّسُهُ قَوْمٌ يَسْمَعونَ و يُبْصِرونَ ، و يَسْتَطيعونَ دَفْعَ الأَذى عَنْ أَنْفُسِهِمْ . . إنَّ أَمْرَ قَوْمي لَعَجيبٌ ! »

وظَلَّ الفَتى بَعْدَ ذَلِكَ يَأْنَفُ مِنَ الأَصْنامِ وعِبادَتِها ، ويَسْخَرُ مِنْ عابِديها الَّذينَ ضَلَّتْ عُقولُهُمْ ، وطاشَتْ أَحْلامُهُمْ . وأَخَذَ يَعْمَلُ في تِجارَةِ الثِّيابِ ، وكانَ أَمينًا وَفِيًّا ، صادِقًا مَعَ نَفْسِهِ ومَعَ غَيْرِهِ ، فَأَقْبَلَ النّاسُ عَلى التَّعامُلِ مَعَهُ ؛ فَنَمَتْ تِجارَتُهُ ، وكَثُرَ مالُهُ .

وكانَتْ صِفاتُهُ الفاضِلَةُ ، وأَخْلاقُهُ العالِيَةُ ، سَبَبًا في رِباطِ الصَّداقَةِ والْمَوَدَّةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ « مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله » ، يُرَحِّبُ بِهِ إذا حَضَرَ ، ويَسْأَلُ عَنْهُ إذا غابَ ، ويَتَعَرَّفُ أَخْبارَهُ وهُوَ يَتَعَبَّدُ في غارِ حِراء ، حَتّى كانَ يَوْمٌ الْتَقاهُ بَعْدَ غِيابٍ طَويلٍ فَقالَ لَهُ :

« لَقَدْ غِبْتَ عَنّي ، يا مُحَمَّدُ ، مُدَّةً طَويلَةً ، فَأَيْنَ كُنْتَ ؟

وكَيْفَ حالُكَ ؟ »

فَأَجابَهُ : « وهَلْ تُصَدِّقُني إذا أَخْبَرْتُكَ بِحالي ؟ »

قالَ : « نَعَمْ ، فَما جَرَّبْتُ عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ . »

قالَ مُحَمَّدٌ : « لَقَدْ أَرْسَلَني اللهُ بَشيرًا ونَذيرًا ، وجَعَلَني دَعْوَةَ إبْراهيمَ ، وبَعَثَني إلى النّاسِ جَميعًا ؛ لِيَعْبُدوا اللهَ وَحْدَهُ ، و يَتْرُكوا عِبادَةَ الأَصْنامِ . »

فَقالَ لَهُ : « و اللهِ إنَّكَ ، يا مُحَمَّدُ ، لَخَليقٌ بِالرِّسالَةِ ، وجَديرٌ بِتَحَمُّلِ هَذِهِ الأَمانَةِ . اُمْدُدْ يَدَكَ أُبايِعْكَ . »

ومُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ الحاسِمَةِ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ في حَياتِهِ ، حَتّى اسْمُهُ « عَبْدُ الكَعْبَةِ » حَلَّ مَحَلَّهُ اسْمٌ جَديدٌ ، أَطْلَقَهُ عَلَيْهِ الرَّسولُ ﷺ ، وهُوَ « عَبْدُ اللهِ » وكَنّاهُ « أَبو بَكْرٍ » ؛ لأَنَّهُ بَكَّرَ في الدُّخولِ إلى الإسْلامِ ، ولَمْ يَتَرَدَّدْ لَحْظَةً في قَبولِ الدَّعْوَةِ ، وكانَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجالِ .

ومُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ حَمَلَ « أَبو بَكْرٍ » لِواءَ الدَّعْوَةِ إلى

الإسلامِ بجانبِ الرَّسولِ ﷺ . ولأنَّهُ كانَ راجحَ العقلِ ، حصيفَ الرَّأيِ ، زكيَّ الخُلقِ ، صادقًا أمينًا – اسْتجابَ لهُ كثيرٌ مِنَ السّابقينَ الأوَّلينَ ، الَّذينَ حملوا عبْءَ الدَّعوةِ ، ونصروا الإسْلامَ بأنْفُسِهِمْ وأمْوالِهِمْ ، ومِنْهُمْ : عُثْمانُ ابْنُ عفّانَ ، والزُّبَيْرُ بْنُ العوّامِ ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عوْفٍ ، وسعْدُ بْنُ أبي وقّاصٍ ، والأرْقَمُ بْنُ أبي الأرْقَمِ .

ولَمْ يَبْخَلْ أبو بكْرٍ على الدَّعْوةِ بمالِهِ ، كما لَمْ يَبْخلْ علَيْها بنفْسِهِ ، فقدِ اعْتنقَ الإسْلامَ جماعةٌ مِنَ العبيدِ ، ولمّا عرفَ سادَتُهُمْ بأمْرِهِمْ راحوا يُعذِّبونَهُمْ تعْذيبًا شديدًا ، ويُنكِّلونَ بِهِمْ تنْكيلاً قويًّا ، فراحَ أبو بكْرٍ يفْتديهِمْ بمالِهِ ، يَشْتريهِمْ مِنْ سادتِهِمْ ويُعْتِقُهُمْ ويُحرِّرُهُمْ ابْتغاءَ مَرْضاةِ اللهِ (عزَّ و جلَّ) .

وكانَ مِنْ بيْنِ هؤُلاءِ العبيدِ « بلالٌ » رضي الله عنه ، و« لُبَيْنَةُ » جاريَةُ عُمَرَ بْنِ الخطّابِ قبْلَ إسْلامِهِ .

وكانَ بعْضُ سادةِ قُريْشٍ يؤْذونَ عبيدَهُمُ الَّذينَ

أسْلموا ، لا حُبًّا في الآلِهَةِ ، ولا حِرْصًا علَيْها ، ولا تقرُّبًا إليها ، وإنَّما يفْعلونَ ذلكَ ؛ لِكَيْ يَشْتريَهُمْ أبو بكْرٍ ، فيُغالوا في أثْمانِهِمْ ، ويكْسِبوا مِنْ وراءِ ذلكَ مالاً وفيرًا .

وقدْ لامهُ أبوهُ على صنيعِهِ – وكانَ لَمْ يُسلِمْ بعْدُ – وقالَ لهُ : « يا بُنيَّ ، ليْتكَ تُنْفِقُ مالكَ في شِراءِ عبيدٍ أقْوياءَ ، يَحْفَظونَ لكَ المعْروفَ ، ويَسْتطيعونَ حمايَتكَ ، والذَّوْدَ عنْكَ . لماذا تشْتري هؤلاءِ الضُّعفاءَ وتُعتِقُهُمْ ؟ »

فَردَّ علَيْهِ أبو بكْرٍ لوْمَهُ في أدبٍ ، وقالَ لهُ : « يا أبَتِ ، إنّي أُريدُ ما عِنْدَ اللهِ لا ما عِنْدَ النّاسِ ! »

لزِمَ أبو بكْرٍ الرَّسولَ ﷺ كما يلْزَمُ الظِّلُّ صاحِبَهُ ، وحفِظَ مِنَ القُرْآنِ الكريمِ ما شاءَ اللهُ لهُ أنْ يحْفَظَ ، وتفقَّهَ في الدّينِ ما شاءَ اللهُ لهُ أنْ يتفقَّهَ ، وصدَّقَ الرَّسولَ الكريمَ في كُلِّ ما جاءَ بهِ ، حتّى كانتْ حادِثَةُ الإسْراءِ بالرَّسولِ ﷺ مِنَ المَسْجِدِ الحرامِ في مكَّةَ إلى المَسْجدِ الأقْصى في بيْتِ المَقْدِسِ . وأخْبَرَ الرَّسولُ الأمينُ بما وقعَ لهُ ، وإذا

الكُفّارُ يَشْتَدّونَ في تَكْذيبِهِ ، والسُّخْرِيَةِ مِنْهُ ، وإذا بَعْضٌ مِنَ الْمُسْلِمينَ تَضْعُفُ نُفوسُهُمْ فَيَرْتَدّونَ عَنِ الإسْلامِ .

ويَسْعى بَعْضُ الكُفّارِ إلى أبي بَكْرٍ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ حاضِرًا لَحْظَةَ أنْ أَخْبَرَ الرَّسولُ الأَمينُ بِإسْرائِه ، والْتَقوهُ في الطَّريقِ ساعِيًا إلى الكَعْبَةِ ، فَقالوا في تَهَكُّمٍ وسُخْرِيَةٍ :

« أَسَمِعْتَ ما قالَ صاحِبُكَ ؟»

فَقالَ لَهُمْ : « وماذا قالَ ؟»

قالوا : « يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصى في بَيْتِ المَقْدِسِ ، وعادَ في لَيْلَتِهِ . »

قالَ أبو بَكْرٍ : « أَوَ قالَ ذَلِكَ ؟ »

قالوا : « نَعَمْ . »

فَقالَ لَهُمْ أبو بَكْرٍ في هُدوءٍ وثَباتٍ وطُمَأْنينَةٍ : « إنْ كانَ قالَ ذَلِكَ فَقَدْ صَدَقَ . »

ومِنْ يَوْمِها لَقَّبَهُ الرَّسولُ ﷺ بِلَقَبِ « الصِّدّيق » .

لَقَدْ أَحَبَّ أَبو بَكْرٍ رَسولَ اللهِ ﷺ حُبًّا جَمًّا ، أَحَبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لأَهْلِهِ و وَلَدِهِ ونَفْسِهِ الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، وبادَلَهُ الرَّسولُ الأَمينُ حُبًّا بِحُبٍّ ، وإجْلالاً بِإجْلالٍ ، فَكانَ أَحَبَّ أَصْحابِهِ إلَيْهِ ، كَما قالَ عَمْرو بْنُ العاصِ :

« سَأَلْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ : أَيُّ النّاسِ أَحَبُّ إلَيْكَ ؟ فَقالَ : عائِشَةُ . قُلْتُ : مِنَ الرِّجالِ ؟ قالَ : أَبوها . »

ويَنْطَبِعُ سُلوكُ أَبي بَكْرٍ مَعَ الرَّسولِ الأَمينِ بِهَذا الحُبِّ القَوِيِّ الصّادِقِ ، فَحينَ أَذِنَ اللهُ لِرَسولِهِ بِالهِجْرَةِ إلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، كانَ أَبو بَكْرٍ رَفيقَهُ وصاحِبَهُ . تَرَكَ أَباهُ الشَّيْخَ ، كَما تَرَكَ زَوْجَتَهُ وأَبْناءَهُ ، وحَمَلَ مَعَهُ مُعْظَمَ مالِهِ ، وانْصَرَفَ مَعَ الرَّسولِ الكَريمِ مُهاجِرًا . وكانَ يَمْشي تارَةً أَمامَهُ ، وتارَةً خَلْفَهُ ، ومَرَّةً عَنْ يَمينِهِ ، وأُخْرى عَنْ شِمالِهِ . فَلَمّا سَأَلَهُ الرَّسولُ الكَريمُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ ، قالَ لَهُ :

« أَخافُ التَّرَبُّصَ بِكَ فَأَسْبِقُكَ ، وأَخْشى اللَّحاقَ بِكَ

فَأَتَأَخَّرُ عَنْكَ ، وأَخافُ أَنْ يَأْتِيكَ العَدُوُّ عَنْ يَمينِكَ أَوْ عَنْ شِمالِكَ فَأَكونُ فِداءً لَكَ ، يا رَسولَ اللهِ . »

ولَمّا عَلِمَ أَبوهُ « أبو قُحافَةَ » بِهِجْرَتِهِ مَعَ الرَّسولِ الأَمينِ ، سَعى إلى بَيْتِهِ ، وكانَ قَدْ كُفَّ بَصَرُهُ ، وقالَ لأَسْماءَ بِنْتِ أَبي بَكْرٍ : « ماذا تَرَكَ لَكُمْ أَبوكُمْ ؟ »

ولَمْ تَعْدَمْ أَسْماءُ الحيلَةَ ، فَأَخَذَتْ كَمِّيَّةً ضَخْمَةً مِنْ صِغارِ الأَحْجارِ ، و وَضَعَتْها في خِزانَةٍ في الحائِطِ ، ثُمَّ غَطَّتْها وأَمْسَكَتْ يَدَ جَدِّها ، و وَضَعَتْها فَوْقَها ، وقالَتْ :

« تَرَكَ لَنا هَذا المالَ الوَفيرَ . »

وحينَئِذٍ قالَ لَها جَدُّها : « إنْ كانَ الأَمْرُ كَذلِكَ فَلا بَأْسَ ! »

ويُعْلِنُ هَذا الحُبُّ الجَليلُ العَميقُ عَنْ نَفْسِهِ في غَزْوَةِ بَدْرٍ ، فَقَدْ كانَ أَبو بَكْرٍ عَلَمًا بارِزًا بَيْنَ المُسْلِمينَ ، وكانَ ابْنُهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » في صُفوفِ المُشْرِكينَ ، فَبَرَزَ مِنْ بَيْنِ

الصُّفوفِ صائِحًا : « مَنْ يُبارِزُ ؟ » فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَبوهُ ، فَتَراجَعَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » وتَخاذَلَ ، وأَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ أَنْ يَدْخُلَ المُصارَعَةَ مَعَ أَبيهِ . ولَمّا أَسْلَمَ قالَ لأَبيهِ : « لَقَدْ تَعَرَّضْتَ لي يَوْمَ بَدْرٍ ، وكُنْتُ أَسْتَطيعُ قَتْلَكَ ، ولَكِنّي تَراجَعْتُ ولَمْ أَفْعَلْ . »

فَقالَ لَهُ أَبوهُ : « ولَكِنَّني لَوِ اسْتَطَعْتُ قَتْلَكَ في سَبيلِ اللهِ لَفَعَلْتُ ! »

وذاتَ يَوْمٍ حَثَّ الرَّسولُ ﷺ القادِرينَ مِنَ المُسْلِمينَ عَلى أَنْ يَتَصَدَّقوا بِما يَسْتَطيعونَ . يَقولُ عُمَرُ رضي الله عنه : « فَقُلْتُ في نَفْسي سَأَسْبِقُ أَبا بَكْرٍ هَذِهِ المَرَّةَ في عَمَلِ الخَيْرِ ، فَذَهَبْتُ إلى بَيْتي ، وعُدْتُ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ بِنِصْفِ ما كانَ عِنْدي مِنْ مالٍ ، فَقالَ لِيَ الرَّسولُ ﷺ :

« ‹‹ ماذا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ و وَلَدِكَ ؟ ›› قُلْتُ : أَبْقَيْتُ لَهُمْ مِثْلَ هَذا المِقْدارِ . وبَعْدَ قَليلٍ جاءَ أَبو بَكْرٍ فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّسولِ ﷺ مالاً كَثيرًا ، فَسَأَلَهُ الرَّسولُ ﷺ :

«‹‹ ماذا أبْقَيْتَ لأهْلِكَ و وَلَدِكَ ؟ ›› فَأجابَهُ : ‹‹ أبْقَيْتُ لَهُمْ عَوْنَ اللهِ وحُبَّ رَسولِهِ . ›› فَقُلْتُ لِنَفْسي حينَذاكَ : ‹‹ إنّي لَنْ أسْبِقَ أبا بَكْرٍ أبَدًا . ››»

وكَما لَزِمَ أبو بَكْرٍ رَسولَ اللهِ ﷺ في مَكَّةَ كَما يَلْزَمُ الظِّلُّ صاحِبَهُ - كَذلِكَ لَزِمَهُ في الْمَدينَةِ ، فَلَمْ يُفارِقْهُ سَفَرًا ولا حَضَرًا إلا فيما أذِنَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ فيه مِنْ غَزْوٍ أو حَجٍّ ، فَكانَ أقْرَبَ أصْحابِهِ إلَيْهِ ، وآثَرَهُمْ عِنْدَهُ ، ولَكِنَّ ذلِكَ لَمْ يُصِبْهُ بِالزَّهْوِ والخُيَلاءِ ، ولَمْ يَجْعَلْهُ يَرى لِنَفْسِهِ فَضْلاً عَلى غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمينَ ؛ بَلْ زادَهُ تَواضُعًا عَلى تَواضُعِهِ ، وحُبًّا لِلْمُساواةِ فَوْقَ حُبِّهِ ، ورَغْبَةً قَوِيَّةً في الإنْصافِ حَتّى مِنْ نَفْسِهِ .

تَناقَشَ يَوْمًا مَعَ « رَبيعَةَ الأسْلَمِيِّ » فَبَدَرَتْ مِنْهُ كَلِمَةٌ فيها شَيْءٌ مِنَ القَسْوَةِ ، ولَكِنَّهُ سَرْعانَ ما نَدِمَ عَلى زَلَّتِهِ ، وقالَ لِرَبيعَةَ :

« رُدَّها عَلَيَّ حَتّى تَأْخُذَ بِحَقِّكَ مِنّي . »

ولَكِنَّ رَبيعَةَ رَفَضَ أنْ يَرُدَّ الكَلِمَةَ القاسِيَةَ عَلى أبي بَكْرٍ ، وقالَ لَهُ :

« إنَّكَ أسْبَقُ الرِّجالِ إلى الإسْلامِ ، وأكْثَرُ النّاسِ صُحْبَةً لِلرَّسولِ ﷺ ، فَكَيْفَ أرُدُّ الكَلِمَةَ عَلَيْكَ ؟ لا أسْتَطيعُ أنْ أفْعَلَ . »

فَقالَ لَهُ أبو بَكْرٍ : « إنْ لَمْ تَرُدَّها عَلَيَّ شَكَوْتُكَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ . »

قالَ رَبيعَةُ : « لا أسْتَطيعُ أنْ أفْعَلَ . »

فانْطَلَقَ أبو بَكْرٍ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، تَبْدو عَلى وَجْهِهِ أماراتُ الحُزْنِ ، وعَلاماتُ النَّدَمِ ، فَلَمّا رَآهُ الرَّسولُ الأمينُ بادَرَهُ بِقَوْلِهِ : « ما بِكَ ، يا أبا بَكْرٍ ؟ »

قالَ أبو بَكْرٍ في حُزْنٍ و أسًى :

« يا رَسولَ اللهِ ، لَقَدْ بَدَرَتْ مِنّي كَلِمَةٌ قاسِيَةٌ لِرَبيعَةَ ، فَطَلَبْتُ مِنْهُ أنْ يَرُدَّها عَلَيَّ فَأبى . »

وبَعْدَ قليلٍ وَصَلَ رَبيعَةُ ، فَسَأَلَهُ الرَّسولُ الأَمينُ عَنِ الأَمْرِ ، فَقالَ :

« يا رَسولَ اللهِ ، ما كُنْتُ لأَرُدَّ عَلى أَبي بَكْرٍ كَلِمَةً بَدَرَتْ مِنْهُ . »

فاسْتَراحَتْ نَفْسُ الرَّسولِ الأَمينِ ، وأَدْرَكَ ما يُكِنُّهُ أَصْحابُهُ لأَبي بَكْرٍ مِنْ إِجْلالٍ وتَوْقيرٍ . وبَرَقَتْ أَساريرُ وَجْهِهِ ، كَعادَتِهِ حينَ يَسُرُّهُ أَمْرٌ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى رَبيعَةَ ، وقالَ لَهُ :

« أَحْسَنْتَ ، يا رَبيعَةُ ! ولَكِنْ قُلْ : غَفَرَ اللهُ لَكَ ، يا أَبا بَكْرٍ . » فَقالَها رَبيعَةُ ، فَنَزَلَتِ السَّكينَةُ في قَلْبِ أَبي بَكْرٍ ، وشَكَرَ لِرَبيعَةَ فِعْلَهُ !

لَقَدْ كانَ أَبو بَكْرٍ يُطَبِّقُ عَلى نَفْسِهِ ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ الأَمينُ مِنْ تَعاليمَ ، قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَ غَيْرَهُ تَطْبيقَها والالْتِزامَ بِها . جاءَهُ مَرَّةً غُلامٌ لَهُ بِبَعْضِ البَلَحِ الجَيِّدِ ، وكانَ الجوعُ قَدِ اسْتَبَدَّ بِهِ ، فَأَقْبَلَ عَلى البَلَحِ الجَيِّدِ يَأْكُلُهُ ، ثُمَّ عَرَفَ أَنَّ

الغُلامَ قَدْ أَوْهَمَ رَجُلاً أَعْرابِيًّا بِأَنَّهُ يُجيدُ قِراءَةَ الْمُسْتَقْبَلِ والتَّنَبُّؤَ بِهِ ، فَأَعْطاهُ الأَعْرابِيُّ هذا البَلَحَ أَجْرًا لَهُ عَلى صَنيعِهِ .

وحينَئِذٍ وَضَعَ أَبو بَكْرٍ أُصْبُعَهُ في فَمِهِ حَتّى تَقَيَّأَ كُلَّ ما أَكَلَهُ مِنَ البَلَحِ ؛ فَقَدِ اكْتَسَبَهُ الغُلامُ مِنْ طَريقٍ غَيْرِ مَشْروعٍ ، و قالَ :

« لَقَدْ سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ : كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ (الحَرامُ مِنَ الْمَكاسِبِ) فَهُوَ في النّارِ . »

وانْتَقَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ إِلى الرَّفيقِ الأَعْلى ، ولَمْ يُحَدِّدِ اسْمَ مَنْ يَخْلُفُهُ ، وتَرَكَ ذلِكَ لِلْمُسْلِمينَ يَتَحَمَّلونَ مَسْئوليَّةَ اخْتيارِ مَنْ يَحْكُمُهُمْ جيلاً بَعْدَ جيلٍ ، عَمَلاً بِقَوْلِ اللهِ (عَزَّ و جَلَّ) : ﴿ وأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ ﴾ . ولَكِنْ كانَتْ هُناكَ إِشاراتٌ مِنَ الرَّسولِ الأَمينِ تُقَدِّمُ « أَبا بَكْرٍ » عَلى غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمينَ ؛ فَقَدْ خَرَجَ ذاتَ يَوْمٍ لِصُلْحٍ بَيْنَ رِجالٍ مِنَ الأَوْسِ والْخَزْرَجِ ، وأَمَرَ بِأَنْ يَؤُمَّ « أَبو بَكْرٍ »

النّاسَ في الصَّلاةِ إنْ حانَ مَوْعِدُها قَبْلَ عَوْدَتِهِ . وجاءَتْهُ امْرأَةٌ ذاتَ يَوْمٍ تَشْكو لَهُ بَعْضَ ما أَلَمَّ بِها ، فَقَضى لَها فيهِ ، وطَلَبَ مِنْها أَنْ تَعودَ إِلَيْهِ ؛ لِتُخْبِرَهُ بِما حَدَثَ لَها ، فَقالَتْ لَهُ :

« وإِنْ لَمْ أَجِدْكَ ، يا رَسولَ اللهِ ؟» تَعْني الْمَوْتَ ، فَقالَ لَها ﷺ : « إِنْ لَمْ تَجِديني فَأْتِ أَبا بَكْرٍ . »

وحينَما ثَقُلَ الْمَرَضُ عَلى الرَّسولِ الأَمينِ ، ولَمْ يَسْتَطِعِ الخُروجَ لِيَؤُمَّ الْمُسْلِمينَ في الصَّلاةِ ، قالَ : « مُروا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ . »

وكَأَنَّما أَشْفَقَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْها - عَلى أَبيها ، وخَشِيَتْ عَلَيْهِ إِنْ وَقَفَ مَوْقِفَ الرَّسولِ الحَبيبِ أَنْ تَغْلِبَهُ رِقَّتُهُ ولينُهُ ، فَتَجيشَ نَفْسُهُ بِالبُكاءِ ، فَلا يُسْمِعُ النّاسَ ، وراجَعَتِ الرَّسولَ الكَريمَ في هَذا الأَمْرِ ، واقْتَرَحَتْ أَنْ يَؤُمَّ « عُمَرُ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النّاسَ ، ولَكِنَّ الرَّسولَ الأَمينَ كَرَّرَ قَوْلَهُ : « مُروا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ »

ثَلاثًا ، فَكانَ ذَلِكَ إِصْرارًا مِنْهُ ﷺ عَلى ما أَرادَ . ولَمّا خَرَجَ بِلالٌ إِلى الْمَسْجِدِ ، لَمْ يَجِدْ أَبا بَكْرٍ بَيْنَ النّاسِ ، فَطَلَبَ إِلى « عُمَرَ » أَنْ يَؤُمَّ الْمُصَلِّينَ ، وما إِنْ كَبَّرَ « عُمَرُ » لِلصَّلاةِ وكانَ ذا صَوْتٍ قَوِيٍّ جَهْوَرِيٍّ ، حَتّى قالَ الرَّسولُ الأَمينُ في نَبْرَةٍ غاضِبَةٍ :

« يَأْبى اللهُ ذَلِكَ ورَسولُهُ . »

وبَلَغَتِ الكَلِمَةُ آذانَ « عُمَرَ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَتَنَحّى عَنِ الإِمامَةِ ، لِيَتَقَدَّمَ « أَبو بَكْرٍ » ، وكانَ قَدْ حَضَرَ .

كُلُّ هَذِهِ الإِشاراتِ جَعَلَتِ الْمُسْلِمينَ حينَ اجْتَمَعوا في سَقيفَةِ بَني ساعِدَةَ ؛ لِيَخْتاروا خَليفَةَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، يُقَدِّمونَ « أَبا بَكْرٍ » عَلى مَنْ سِواهُ ، وقالوا كَما قالَ عُمَرُ : « رَضِيَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ لِدينِنا ، أَفَلا نَرْضاهُ لِدُنْيانا ؟»

وحينَ قالَ أَبو بَكْرٍ لِلْمُجْتَمِعينَ في السَّقيفَةِ مِنَ الْمُهاجِرينَ والأَنْصارِ : « هَذا عُمَرُ ، وهَذا أَبو عُبَيْدَةَ ، فَأَيَّهُما شِئْتُمْ فَبايِعوا . » نَهَضَ عُمَرُ فَقالَ :

« لا ، واللهِ ! لا يَتَولّى أَحَدٌ هذا الأَمْرَ عَلَيْكَ . أَنْتَ أَسْبَقُنا إلى الإسْلامِ ، وثانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُما في الغارِ ، وخَليفَةُ رَسولِ اللهِ في الصَّلاةِ . . ابْسُطْ يدَكَ نُبايِعْكَ . »

وتَمَّتِ البَيْعَةُ لأَبي بَكْرٍ رضي الله عنه ، وأَصْبَحَ خَليفَةَ رَسولِ اللهِ ﷺ في قِيادَةِ الْمُسْلِمينَ ، وتَصْريفِ شُئونِهِمْ . وحينَئِذٍ وَقَفَ لِيُلْقِيَ في الْمُسْلِمينَ خُطْبَةً هِيَ دُسْتورُ حُكْمِهِ ، وعَهْدٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ الْمَحْكومينَ ، وضَّحَ فيها لِلنّاسِ أَنَّهُمُ اخْتاروهُ لِيَتَولّى أَمْرَهُمْ ، وهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَيْسَ أَفْضَلَ واحِدٍ فيهِمْ ، ولِذلِكَ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُعينوهُ إذا أَحْسَنَ الْمَسيرَةَ فيهِمْ ، وأَنْ يُقَوِّموهُ إذا انْحَرَفَ عَنِ الطَّريقِ الصَّحيحِ ، وأَنْ يُشيروا عَلَيْهِ ، ويَبْذُلوا لَهُ النُّصْحَ .

ثُمَّ أَرْسى قاعِدَةً أَساسِيَّةً في أُصولِ الحُكْمِ ، وهِيَ الْمُساواةُ بَيْنَ الأَقْوِياءِ والضُّعَفاءِ أَمامَ القانونِ ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ القَوِيَّ فيهِمْ ضَعيفٌ عِنْدَهُ حَتّى يَأْخُذَ الحَقَّ مِنْهُ ، وأَنَّ الضَّعيفَ فيهِمْ قَوِيٌّ عِنْدَهُ حَتّى يَأْخُذَ الحَقَّ لَهُ . وخَتَمَ

خُطْبَتَهُ أَوْ دُسْتورَ حُكْمِهِ بِقاعِدَةٍ جَليلَةٍ ، هِيَ أَنَّ لَهُ عَلَيْهِمْ حَقَّ الطّاعَةِ مادامَ للهِ مُطيعًا ، فَإذا عَصاهُ فَلا طاعَةَ لَهُ عَلَيْهِمْ .

وبِذلِكَ كَوَّنَ « أَبو بَكْرٍ » رضي الله عنه أَوَّلَ حُكومَةٍ بَعْدَ الرَّسولِ ﷺ ، واخْتارَ مُعاونيهِ مِنْ خيرَةِ الصَّحابَةِ ، وأَكْثَرِهِمْ خِبْرَةً وكِفايَةً ، فَجَعَلَ وِلايَةَ بَيْتِ المالِ لأَبي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرّاحِ أَمينِ الأُمَّةِ ، وجَعَلَ وِلايَةَ القَضاءِ لِعُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ، وهُوَ القِمَّةُ السّامِقَةُ في العَدْلِ والنَّزاهَةِ ، واخْتارَ زَيْدَ بْنَ ثابِتٍ كاتِبَ رَسولِ اللهِ ﷺ لِيَكْتُبَ لَهُ ، وجَمَعَ كِبارَ الصَّحابَةِ حَوْلَهُ ؛ مُتَّخِذًا مِنْهُمْ مَجْلِسَ شورى فيما وَلِيَ مِنْ أُمورِ الْمُسْلِمينَ ، و وَلّى قِيادَةَ الجُيوشِ أَكْثَرَ الصَّحابَةِ خِبْرَةً بِالحُروبِ ، ودِرايَةً بِالقِتالِ ، وثَباتًا في الْمَيْدانِ ؛ كَخالِدِ بْنِ الوَليدِ وعَمْرِو بْنِ العاصِ وسَعْدِ بْنِ أَبي وَقّاصٍ .

لَمْ يَكَدْ يَسْتَقِرُّ أَمْرُ الخِلافَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ حَتّى كانَ عَلى الخَليفَةِ أَنْ يُواجِهَ هذِهِ الثَّوْرَةَ العارِمَةَ ، الَّتي كادَتْ تَعْصِفُ

بالإسْلامِ وأَهْلِهِ ؛ فَقَدِ ارْتَدَّ كَثيرٌ مِنَ القَبائِلِ العَرَبيَّةِ عَنِ الإسْلامِ ، واتَّبَعَ بَعْضُها مَنِ ادَّعى النُّبُوَّةَ مِنْ أَبْنائِها ، وامْتَنَعَ بَعْضٌ آخَرُ عَنْ دَفْعِ الزَّكاةِ .

وكادَ الإسْلامُ يَنْحَصِرُ في الْمَدينَةِ ومَكَّةَ والطَّائِفِ ، وأَحاطَتْ بِالْمُسْلِمينَ بُحَيْرَةٌ واسِعَةٌ مِنَ الْمُرْتَدّينَ والعاصِينَ ، وكانَ جَيْشُ « أُسامَةَ » الَّذي جَهَّزَهُ الرَّسولُ ﷺ قَبْلَ وَفاتِهِ لا يَزالُ رابِضًا خارِجَ الْمَدينَةِ ، يَنْتَظِرُ الإذْنَ بِالْمَسيرِ إلى الرُّومِ ، أَوِ العَوْدَةِ لِيَكونَ قُوَّةً في الدِّفاعِ عَنِ الإسْلامِ ومُقاتَلَةِ الْمُرْتَدّينَ .

واجْتَمَعَ الصَّحابَةُ ، وتَشاوَروا في الأَمْرِ ، واخْتَلَفَتِ الآراءُ ، ولَكِنَّ الخَليفَةَ حَسَمَ الأَمْرَ بِإِصْرارِهِ عَلى قِتالِ الْمُرْتَدّينَ أَجْمَعينَ ، دونَ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ مَنْ مَنَعَ الزَّكاةَ فَحَسْبُ ، وبَيْنَ مَنْ أَعْلَنَ ارْتِدادَهُ أَوِ اتِّباعَهُ مَنِ ادَّعى النُّبُوَّةَ مِنْ قَبيلَتِهِ .

وأَشارَ بَعْضُ الصَّحابَةِ بِاسْتِبْقاءِ جَيْشِ أُسامَةَ لِيَكونَ قُوَّةً

في وَجْهِ الْمُرْتَدّينَ ، ولِيَكونَ حامِيًا لِلْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مِنْ غَزْوِهِمْ . ولَكِنَّ الخَليفَةَ أَصَرَّ عَلى إنْفاذِ الجَيْشِ إلى الْمَكانِ الَّذي حَدَّدَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ قائِلاً في عَزيمَةٍ ثابِتَةٍ :

« واللهِ ، ما كُنْتُ لأَمْنَعَ بَعْثًا وَجَّهَهُ رَسولُ اللهِ ولَوْ تَخَطَّفَتْنا السِّباعُ في الْمَدينَةِ . »

وكانَ إنْفاذُ جَيْشِ أُسامَةَ إلى الرُّومِ خَيْرًا كُلُّهُ ؛ إذْ شَعَرَتِ القَبائِلُ الْمُرْتَدَّةُ أَنَّ الْمُسْلِمينَ لَوْ لَمْ يَكونوا في قُوَّةٍ ومَنَعَةٍ ما أَرْسَلوا هَذا الجَيْشَ لِمُحارَبَةِ الرُّومِ ؛ ولِذا تَراجَعَ بَعْضُها عَنِ الرِّدَّةِ ، وعادوا إلى رِحابِ الإسْلامِ .

ومِمّا يُذْكَرُ أَنَّ « عُمَرَ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كانَ جُنْدِيًّا في جَيْشِ أُسامَةَ ، وكانَ الخَليفَةُ في حاجَةٍ إلى بَقائِهِ مَعَهُ ، فَلَمْ يُصْدِرْ أَمْرًا بِبَقائِهِ ، ولَمْ يَنْتَقِصْ سُلْطَةَ أُسامَةَ ، وإنَّما مَشى عَلى قَدَمَيْهِ ، يُوَدِّعُ جَيْشَ أُسامَةَ ، ويُوصيهِ ويَدْعو لَهُ ، ثُمَّ تَلَطَّفَ مَعَهُ في القَوْلِ لِيُنْبِئَهُ بِأَنَّهُ في حاجَةٍ إلى عُمَرَ ، فَإِنْ شاءَ أَبْقاهُ مَعَهُ ؛ لأَنَّ في ذَلِكَ مَصْلَحَةً

لِلإسْلامِ والْمُسْلمينَ .

وَلَمْ يَكُنْ هَذا العَمَلُ لِيُنْقِصَ مِنْ سُلْطانِ الخَليفَةِ ، ولا لِيُزْرِيَ بِمَكانَتِهِ ، أَوْ يُضْعِفَ مِنْ هَيْبَتِهِ ، وإنَّما زادَهُ مَهابَةً وجَلالاً ، وأكَّدَ لَهُ في قُلوبِ الرَّعِيَّةِ حُبّا واحْتِرامًا . كَما أَنَّهُ - هَذا التَّواضُعَ - لَمْ يَكُنْ تَكَلُّفًا ولا تَصَنُّعًا ، وإنَّما هُوَ طَبيعَةٌ وسَجِيَّةٌ . فَقَدْ كانَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ خَليفَةً يَسْعى إلى بَيْتِ أَرْمَلَةٍ عَجوزٍ ، يَحْلُبُ لَها شاتَها ، ويُعينُها في إعْدادِ طَعامِها . فَلَمّا تَوَلّى الخِلافَةَ أَحَسَّتِ العَجوزُ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ الْمُثابَرَةَ عَلى هَذا العَوْنِ ؛ فَقَدْ تَكاثَرَتْ عَلَيْهِ الشُّئونُ ، وتَعَدَّدَتْ أَمامَهُ الأُمورُ ، ولَكِنَّها سَرْعانَ ما سَمِعَتْ دَقّاتٍ عَلى بابِها ، فَأَرْسَلَتْ حَفيدَةً صَغيرَةً لَها تَنْظُرُ مَنِ الطّارِقُ ، وإذا الطِّفْلَةُ تَرى « أَبا بَكْرٍ » أَمامَها ، وإذا هِيَ تَصيحُ بِجَدَّتِها :

« إنَّهُ حالِبُ الشّاةِ يا أُمّاهُ ! »

فَقالَتْ لَها الجَدَّةُ : «وَيْحَكِ يا حَفيدَتي ! لا تَقولي :

حالِبُ الشّاةِ ، ولَكِنْ قولي : خَليفَةُ رَسولِ اللهِ ﷺ . »

فَقالَ أَبو بَكْرٍ : « يا أُمّاهُ ، إنَّ الصِّفَةَ الَّتي ذَكَرَتْها الطِّفْلَةُ أَحَبُّ إلَيَّ . »

وكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَواضُعُهُ ولينُهُ ، ورِقَّتُهُ ولُطْفُهُ - لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ ناشِئًا عَنْ فُتورٍ في الهِمَّةِ ، وخَوَرٍ في العَزيمَةِ ؛ فَقَدْ كانَ يَنْقَلِبُ أَسَدًا كاسِرًا ، ويَمْتَلِئُ قُوَّةً وحَماسًا حينَ يَرى الباطِلَ يَكادُ يُزْهِقُ الحَقَّ ، ويَعْلو عَلَيْهِ . أُخِذَ عَلى « أَبي سُفْيانَ » سَيِّدِ بَني أُمَيَّةَ بَعْضُ الأَخْطاءِ ، فاحْتَدَّ أَبو بَكْرٍ عَلَيْهِ ، واضْطُرَّ أَبو سُفْيانَ أَنْ يَجْنَحَ إلى اللِّينِ والضَّعْفِ ، لِكَيْ يَسْتَلَّ غَضَبَ الخَليفَةِ ، ويَنْجُوَ مِنْ بَطْشِهِ .

وسَمِعَ « أَبو قُحافَةَ » والِدُ « أَبي بَكْرٍ » هَذا النِّقاشَ الَّذي كانَ يَدورُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ، والَّذي يَبْدو فيهِ أَبو بَكْرٍ مُسْتَعْلِيًا قَوِيّا ، والآخَرُ مُسْتَكينًا ضَعيفًا ، فَسَأَلَ : « عَلى مَنْ يَصيحُ ابْني ؟ »

فَلَمّا عَرَفَ أَنَّهُ أَبو سُفْيانَ قالَ لأَبي بَكْرٍ : « أَ عَلى أَبي

سُفْيانَ تصيحُ ؟ لقد جاوزْتَ حدَّكَ !»

فَردَّ عَلَيْهِ أبو بكرٍ مُوضِّحًا : « يا أَبتِ ، إنَّ اللهَ أَعزَّ بالإسْلامِ صاحِبَ الحَقِّ ، وأذلَّ الآخرينَ . »

اجْتمعَتْ كَلِمَةُ المُسْلمينَ على قتالِ المُرْتَدّينَ أيًا كانَتِ الصِّفَةُ التي ارْتَدّوا عليها ، وبَدأَ الخَليفَةُ أبو بكْرٍ في إعْدادِ الجيوشِ ، وتَولِيَةِ القادَةِ ، وتَعْيينِ الجِهَةِ التي يَذْهَبُ إليْها كُلُّ جَيْشٍ ، وبَيَّنَ لَهُمْ كَيْفَ تُسْعِفُ الجُيوشُ بَعْضُها بَعْضًا ، وكانَ مِنْ أخْطَرِ المُرْتَدّينَ القَبائِلُ التي تَسْكُنُ أَرْضَ البَحْرَيْنِ ؛ إذْ كانوا تَحْتَ قِيادَةِ عَناصِرَ يَهودِيَّةٍ وفارِسِيَّةٍ ، تُذْكي نارَ الفِتْنَةِ ، وتَحُثُّهُمْ على التَّمَسُّكِ بالرِّدَّةِ ، حَتّى إنَّ الفُرْسَ وَجَدوا في ذَلِكَ فُرْصَةً سانِحَةً فاغْتَنَموها ، وأرْسَلوا جَيْشًا فارِسِيًا يَدْعَمُ المُرْتَدّينَ ، ويُقاتِلُ مَعَهُمُ المُسْلِمينَ .

واخْتارَ أبو بكْرٍ لِقِتالِ هَذِهِ القَبائِلِ رَجُلاً صالِحًا شُجاعًا ، هُوَ العَلاءُ بْنُ الحَضْرَمِيِّ ، وأَمَرَ « خالِدَ بْنَ الوَليدِ » أنْ

يُعينَ العَلاءَ عَقِبَ انْتِهائِهِ مِنْ حَرْبِ مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ .

زَحَفَ العَلاءُ بِجَيْشِهِ لِمُقاتَلَةِ المُرْتَدّينَ مِنْ سُكّانِ البَحْرَيْنِ ، ودارَتِ المَعارِكُ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ ، وكانَتْ تَنْشَطُ نَهارًا ، وتَهْدَأُ لَيْلاً . وفي إحْدى اللَّيالي سَمِعَ العَلاءُ جَلَبَةً وضَوْضاءَ في مُعَسْكَرِ الأعْداءِ ، فَأَرْسَلَ رَجُلاً مِنْ جُنودِهِ يَسْتَطْلِعُ الأمْرَ ، وإذا الرَّجُلُ يَعودُ إلَيْهِ مُسْرِعًا ؛ لِيُخْبِرَهُ بِأَنَّ الأعْداءَ قَدْ شَرِبوا الخَمْرَ ، وسَكِروا وثَمِلوا ، وراحوا يَرْقُصونَ و يُغَنّونَ .

واغْتَنَمَ العَلاءُ هَذِهِ الفُرْصَةَ ، فَأَطْبَقَ عَلَيْهِمْ بِجَيْشِهِ ، فَهَزَمَهُمْ هَزيمَةً مُنْكَرَةً ، وقَتَلَ قائِدَهُمْ « الحطم » ، وفَرَّ النّاجونَ مِنْهُمْ إلى الجُزُرِ الدّاخِلِيَّةِ ، وأَحْرَقوا السُّفُنَ حَتّى لا يَسْتَخْدِمَها جَيْشُ المُسْلِمينَ ، وجَعَلوا البَحْرَ عائِقًا مادِّيًا ، ومانِعًا يَحولُ بَيْنَ جَيْشِ المُسْلِمينَ وبَيْنَ العُبورِ إلَيْهِمْ ، وظَنّوا أَنَّهُمْ بِذَلِكَ في حِصْنٍ حَصينٍ ، ورُكْنٍ مَكينٍ . . ونَسوا أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لا يَمْنَعُهُمْ مِنَ اللهِ ، وأَنَّهُ

لَهُمْ بِالمِرْصادِ ، وأَنَّهُ قَدْ وَعَدَ عِبادَهُ الْمُؤْمِنينَ بِالنَّصْرِ : ﴿وكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنينَ﴾ .

وَقَفَ العَلاءُ بْنُ الحَضْرَمِيِّ أَمامَ هَذا البَحْرِ المانِعِ ، وتَوَجَّهَ إلى رَبِّهِ ، يُصَلّي في ضَراعَةٍ وخُشوعٍ ، ويَدْعوهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ ولِجَيْشِهِ فَرَجًا مِنْ هَذا الضّيقِ ، ومَخْرَجًا مِنْ هَذا الأَمْرِ . وما هِيَ إلا لَحْظَةٌ خاطِفَةٌ حَتّى انْحَسَرَ الماءُ عَنْ أَرْضٍ يابِسَةٍ ، ومَضى جَيْشُ الْمُسْلِمينَ في طَريقِهِ حَتّى فاجَأَ الأَعْداءَ فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ ، وفَرَّ مِنْهُمْ مَنْ فَرَّ ، وعادَ إلى رِحابِ الإسْلامِ مِنْهُمْ مَنْ عادَ .

ولَمْ تَمْضِ غَيْرُ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ في حِسابِ الأُمَمِ والشُّعوبِ حَتّى عادَتِ الجَزيرَةُ العَرَبِيَّةُ إلى وَحْدَتِها ، ورَفْرَفَ لِواءُ الإسْلامِ خَفّاقًا فَوْقَ رُبوعِها ، وعادَ الحَقُّ إلى نِصابِهِ ؛ فانْطَلَقَتْ جُيوشُ الْمُسْلِمينَ إلى بِلادِ الفُرْسِ والرُّومِ ، تُحَطِّمُ طُغْيانَهُمْ ، وتُحَرِّرُ النّاسَ مِنْ قَهْرِهِمْ ، وتَرْفَعُ عَنِ العِبادِ ظُلْمَ الْمُلوكِ والقَياصِرَةِ ، وتَجْعَلُهُمْ أَحْرارًا في

اخْتِيارِ الدّينِ الَّذي يُؤْمِنونَ بِهِ .

ولَكِنْ كانَتْ ثَمَّةَ مُشْكِلَةٌ تُؤَرِّقُ الخَليفَةَ وأَعْوانَهُ ، وتَقُضُّ مَضاجِعَهُمْ ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدِ اسْتُشْهِدَ في حُروبِ الرِّدَّةِ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنْ قُرّاءِ القُرْآنِ الكَريمِ وحُفّاظِهِ ، ويُخْشى أَنْ يَقْضِيَ نَحْبَهُ عَدَدٌ آخَرُ مِنْهُمْ ، فَيَضيعَ القُرْآنُ بِمَوْتِهِمْ. ومِنْ ثَمَّ اقْتَرَحَ عُمَرُ ﵁ عَلى الخَليفَةِ أَنْ يَجْمَعَ القُرْآنَ الكَريمَ في مُصْحَفٍ واحِدٍ ، فَتَرَدَّدَ أَبو بَكْرٍ ﵁ في ذَلِكَ ؛ إذْ كَيْفَ يُقْدِمُ عَلى فِعْلِ أَمْرٍ لَمْ يَفْعَلْهُ رَسولُ اللهِ ﷺ ، ولَكِنَّ عُمَرَ ﵁ ما زالَ بِهِ يُراجِعُهُ ويُحاوِرُهُ حَتّى شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْقِيامِ بِهَذا العَمَلِ ، فاسْتَدْعى « زَيْدَ بْنَ ثابِتٍ » ، وكانَ مِنَ القُرّاءِ الحُفّاظِ الكاتِبينَ ، وكَلَّفَهُ القِيامَ بِهَذا الأَمْرِ ، فَشَمَّرَ « زَيْدٌ » عَنْ ساعِدِ الجِدِّ ، يُعاوِنُهُ بَعْضُ الصَّحابَةِ ، حَتّى أَنْجَزَ مُهِمَّتَهُ ، وأَدّاها خَيْرَ أَداءٍ .

وحُفِظَ الْمُصْحَفُ عِنْدَ أَبي بَكْرٍ حَتّى ماتَ ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتّى وافاهُ الأَجَلُ الْمَحْتومُ ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ

عُمَرَ وزَوْجِ رَسولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ وَفاةِ أَبيها .

وقَدْ نَسَخَ « عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ » مِنْ هَذا الْمُصْحَفِ عِدَّةَ نُسَخٍ ، وأَرْسَلَها إلى الأَمْصارِ لِيَجْمَعَ الْمُسْلِمينَ عَلى مُصْحَفٍ واحِدٍ .

لَقَدْ كانَ جَمْعُ القُرْآنِ و تَدْوينُهُ مَأْثُرَةً كُبْرى مِنْ مَآثِرِ أَبي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعينَ !

أَمْضى « أَبو بَكْرٍ » ﵁ في الخِلافَةِ سَنَتَيْنِ وبِضْعَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ مَرِضَ وانْتَقَلَ إلى جِوارِ رَبِّهِ ، وهِيَ فَتْرَةٌ وَجيزَةٌ و لَكِنَّها كانَتْ حاسِمَةً دَقيقَةً في تاريخِ الْمُسْلِمينَ ؛ فَقَدْ واجَهَ الخَليفَةُ فيها أَحْرَجَ الْمَواقِفِ ، وأَعْضَلَ الْمُشْكِلاتِ ، ولَكِنَّهُ بِإيمانِهِ الَّذي لَمْ يَتَزَعْزَعْ ، ويَقينِهِ الَّذي لَمْ يَتَضَعْضَعْ - قادَ الْمُسْلِمينَ وسارَ بِهِمْ يَهْزِمُ الباطِلَ ، ويَدُكُّ حُصونَهُ ، ويَهْدِمُ قِلاعَهُ ، حَتّى عادَتْ لَهُمْ وَحْدَتُهُم ، وبَسَطَ الإسْلامُ رُواقَهُ عَلى أَرْضِ الجَزيرَةِ العَرَبِيَّةِ كَما كانَ .

ودُفِنَ ﵁ إلى جِوارِ حَبيبِهِ رَسولِ اللهِ ﷺ في بَيْتِ عائِشَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) ، وقالَ عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ :
« . . كُنْتَ كالجَبَلِ الَّذي لا تُحَرِّكُهُ العَواصِفُ . . كُنْتَ ضَعيفًا في بَدَنِكَ ، قَوِيًّا في أَمْرِ رَبِّكَ ، مُتَواضِعًا في نَفْسِكَ ، عَظيمًا عِنْدَ اللهِ ، جَليلاً في الأَرْضِ ، كَبيرًا في السَّماءِ ، ولَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ عِنْدَكَ مَطْمَعٌ ، ولا لأَحَدٍ عِنْدَكَ هَوادَةٌ . »

رَحِمَ اللهُ « أَبا بَكْرٍ » ! فَقَدْ تَمَثَّلَتْ فيهِ كُلُّ الْمَعاني الإسْلامِيَّةِ !

الفاروقُ
(عُمرُ بنُ الخطّاب)

بَعْدَ ثلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ مَوْلِدِ الرَّسولِ ﷺ وُلِدَ لِلْخطّابِ بْنِ نُفَيْلٍ وَلَدٌ مِنِ امْرَأَتِهِ « حَنْتَمَةَ الْمَخْزومِيَّةِ » ، فَأَسْماهُ « عُمَرَ » .

وكانَ الخَطّابُ – عَلى الرَّغْمِ مِنْ يُسْرِ حالِهِ – قاسِيًا شَديدًا ، خَشِنًا جافًّا ، فَنَشَّأَ ابْنَهُ تَنْشِئَةً خَشِنَةً ، لا تَعْرِفُ اللَّهْوَ والعَبَثَ ، ولا تَعْرِفُ الطَّراوَةَ واللِّينَ .

ولَمْ يَضِقِ الوَلَدُ بِهَذِهِ التَّنْشِئَةِ ، وما فيها مِنْ خُشونَةٍ وقَسْوَةٍ ، ولَمْ يُوازِنْ بَيْنَ حالِهِ وحالِ أَتْرابِهِ وما هُمْ فيهِ مِنْ لَهْوٍ ولَعِبٍ وخَفْضٍ وتَرَفٍ ، بَلْ أَفادَ مِنْ هَذِهِ الخُشونَةِ

فائِدَةً عَظيمَةً ؛ لَقَدْ أَكْسَبَتْهُ صِحَّةً في الجِسْمِ ، وقُدْرَةً عَلى الحَزْمِ ؛ فاسْتَطاعَ – وهُوَ يَرْعى الغَنَمَ لِبَعْضِ خالاتِهِ بِقَبْضَةٍ مِنْ عِنَبٍ أَوْ تَمْرٍ – اسْتَطاعَ أَنْ يَتَعَلَّمَ القِراءَةَ والكِتابَةَ ، وأَنْ يَحْذِقَهُما ويَبْرَعَ فيهِما ، فَكانَ واحِدًا مِنْ سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا يَعْرِفونَهُما حينَما بَزَغَ فَجْرُ الإِسْلامِ في مَكَّةَ .

ولَمْ يَقِفْ بِهِ الأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَقَدْ كانَ يَسْتَمِعُ إِلى الشِّعْرِ ، ويَتَذَوَّقُهُ ، ويَرْويهِ ، ويُمَيِّزُ جَيِّدَهُ مِنْ رَديئِهِ ، ويُبْدي إِعْجابَهُ بِبَعْضِ الشُّعَراءِ دونَ بَعْضٍ ، ويُعَلِّلُ هَذا الإِعْجابَ و يُبَرِّرُهُ تَبْريرًا مَقْبولًا .

كُلُّ ذَلِكَ أَكْسَبَهُ تَكْوينًا ثَقافِيًّا باهِرًا ، بَدا في قُوَّةِ عارِضَتِهِ ، ونَصاعَةِ حُجَّتِهِ ، وقُدْرَتِهِ عَلى الْمُناظَرَةِ ، وبَراعَتِهِ في الْمُفاوَضَةِ ، مِمّا حَدا بِقُرَيْشٍ أَنْ تَجْعَلَهُ سَفيرَها لَدى القَبائِلِ الأُخْرى ، حينَ تُلِمُّ بِها الْمُشْكِلاتُ ، وتَحُلُّ بِها الأَزَماتُ ، وتَتَعَقَّدُ الأُمورُ ؛ فَكانَ حازِمًا

حاسِمًا ، لا يَقْبَلُ غَيْرَ العَدْلِ والإنْصافِ ولَوْ كانَ عَلى قَبيلَتِهِ !

وَلَكِنَّهُ – عَلى الرَّغْمِ مِنْ قُوَّةِ فِكْرِهِ ، وَرَجاحَةِ عَقْلِهِ ، وَسَدادِ رَأْيِهِ ، وَحُبِّهِ لِلْحَقِّ والإنْصافِ – كانَ شَديدَ التَّعَصُّبِ لآلِهَةِ آبائِهِ وأجدادِهِ ، شَديدَ الحِرْصِ عَلى تَقاليدِ القَبيلَةِ وعاداتِها ، يَرى في المَساسِ بالآلِهَةِ نَقْصًا لِكَرامَتِهِ ، وامْتِهانًا لِعِزَّتِهِ ، ولِذا فَقَدْ كانَ عَنيفًا في إنْكارِهِ دَعْوَةَ الإسْلامِ ، عَنيفًا في خُصومَتِهِ لِلْمُسْلِمينَ ، يُؤْذيهِمْ فَيَشْتَدُّ في الإيذاءِ ، ويُنَكِّلُ بِهِمْ فَيَشْتَطُّ في التَّنْكيلِ ، حَتّى إنَّ « أبا بَكْرٍ » اشْتَرى مِنْهُ جارِيَتَهُ (لُبَيْنَةَ) لِيُنْقِذَها مِنْ بَطْشِهِ وأذاهُ .

يَرْوي « عُمَرُ » عَنْ نَفْسِهِ ، أَنَّهُ ضَحِكَ ذاتَ مَرَّةٍ بَعْدَ إسْلامِهِ حَتّى بَدَتْ نَواجِذُهُ ، فَسَأَلَهُ الحاضِرونَ عَمّا يُضْحِكُهُ ، فَقالَ لَهُمْ : « ضَحِكْتُ مِنْ جَهْلي وسَفَهي في جاهِلِيَّتي ! فَقَدْ صَنَعْتُ يَوْمًا صَنَمًا مِنَ العَجْوَةِ ، ولَبِثْتُ أَعْبُدُهُ وأَتَقَرَّبُ لَهُ جُزْءًا طَويلاً مِنَ النَّهارِ ، حَتّى إذا لَذَعَني

الجوعُ بِسِياطِهِ ، وقَرَصَ أَحْشائي – نَظَرْتُ إلى صَنَمي فَأَكَلْتُهُ !»

وبَكى ذاتَ مَرَّةٍ حَتّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ مِنْ دُموعِهِ ، ولَمّا سَأَلَهُ مَنْ حَوْلَهُ عَنْ سَبَبِ بُكائِهِ ، قالَ لَهُمْ : « ذَكَرْتُ ابْنَةً لي في جاهِلِيَّتي أَخَذْتُها خارِجَ مَكَّةَ ، ورُحْتُ أَحْفِرُ لَها حُفْرَةً لأَدْفِنَها حَيَّةً ، فَتَطايَرَ التُّرابُ عَلى لِحْيَتي ، فَكانَتْ تَنْفُضُ الغُبارَ عَنْ لِحْيَتي بِيَدِها الرَّقيقَةِ الحانِيَةِ !»

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ القَسْوَةُ أَوِ الخُشونَةُ البادِيَةُ هِيَ الطّاغِيَةَ عَلى صِفاتِ عُمَرَ وسُلوكِهِ ؛ فَقَدْ كانَ بَرًّا رَحيمًا ، لا تَلْبَثُ يَنابيعُ الرَّحْمَةِ أَنْ تَتَفَجَّرَ في صَدْرِهِ وتَفيضَ ، بِمُجَرَّدِ أَنْ تَنْزاحَ الغُيومُ عَنْ بِئْرِها . وكانَتْ هَذِهِ الرَّحْمَةُ البالِغَةُ سَبَبًا قَوِيًّا في إسْلامِهِ .

أَسْلَمَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ عامِرٍ » وزَوْجَتُهُ ، وكانَ جارًا لِعُمَرَ ، فَكانَ يَحْظى بِنَصيبٍ مَوْفورٍ مِنْ عَنَتِهِ وإيذائِهِ . فَلَمّا أَذِنَ الرَّسولُ ﷺ لأَصْحابِهِ في الهِجْرَةِ إلى الحَبَشَةِ –

أَخَذا يَسْتَعِدّانِ لِلرَّحيلِ ، فَجاءَ « عُمَرُ » و كانَ « عَبْدُ اللهِ » قَدْ خَرَجَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ ، فَرَأى عُمَرُ زَوْجَتَهُ تُعِدُّ العُدَّةَ لِلسَّفَرِ ، فَسَأَلَها في رِقَّةٍ بالِغَةٍ ، وعَطْفٍ شَديدٍ : « أَهُوَ الرَّحيلُ ، يا أُمَّ عَبْدِ اللهِ ؟ »

فَأَجابَتْهُ الْمَرْأَةُ : « نعَمْ ، آذَيْتُمونا وقَهَرْتُمونا في أَرْضِنا . »

فرَقَّ لَها عُمَرُ رِقَّةً شَديدَةً ، وانْجابَتِ الغُيومُ عَنْ بِئْرِ الرَّحْمَةِ في قَلْبِهِ ، فَفاضَ عَطْفًا وبِرًّا ، وقالَ لِلْمَرْأَةِ في نَبْرَةٍ آسِيَةٍ : « صَحِبَكُمُ اللهُ ! »

ولَمّا جاءَ زَوْجُها حَكَتْ لَهُ ما حَدَثَ ، وهِيَ مُتَهَلِّلَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، فَقالَ لَها : « أَظُنُّكِ طَمِعْتِ في إسْلامِه . . واللهِ لا يُسْلِمُ حَتّى يُسْلِمَ حِمارُ الخَطّابِ ! »

ولَكِنْ صَدَقَ حَدْسُ الْمَرْأَةِ ، وخابَ رَأْيُ الرَّجُلِ ! فَأَسْلَمَ عُمَرُ ، وكانَتِ الرَّحْمَةُ سَبيلاً قَوِيًّا إلى إسْلامِهِ !

* * *

لَقَدْ ضاقَ صَدْرُهُ بالإسْلامِ والْمُسْلِمينَ ، وغَلا الدَّمُ في عُروقِهِ ، ورَأى قُرَيْشًا لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَحْسِمَ أَمْرَها ، وتَتَّخِذَ في شَأْنِ مُحَمَّدٍ مَوْقِفًا ؛ فَعَزَمَ عَلى أَنْ يَحْسِمَ الأَمْرَ وَحْدَهُ ، وأَنْ يَقْضِيَ فيهِ بِرَأْيِهِ ؛ كَيْ يُخَلِّصَ قُرَيْشًا مِنْ كَرْبِها ، ويَنْتَشِلَها مِنْ وَرْطَتِها . . لَقَدْ عَزَمَ عَلى أَنْ يَقْتُلَ مُحَمَّدًا ، وأَنْ يَقْتُلَهُ بَيْنَ أَصْحابِهِ ؛ فَتَقَلَّدَ سَيْفَهُ ، وتَنَكَّبَ قَوْسَهُ ، وامْتَشَقَ رُمْحَهُ ، وخَرَجَ في طَريقِهِ لا يَلْوي عَلى شَيْءٍ ، يُريدُ دارَ الأَرْقَمِ الَّتي يَجْتَمِعُ فيها مُحَمَّدٌ وصَحْبُهُ .

وبَيْنَما هُوَ يَنْتَهِبُ الطَّريقَ إلى دارِ الأَرْقَمِ ، وقَدِ اتَّقَدَ صَدْرُهُ غَيْظًا ، وانْقَلَبَتْ سَحْنَتُهُ مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ - لَقِيَهُ رَجُلٌ يُدْعى « نُعَيْمَ بْنَ عَبْدِ اللهِ » فَسَأَلَهُ : « إلى أَيْنَ أَنْتَ ذاهِبٌ ؟ »

فَأَجابَهُ : « ذاهِبٌ إلى هَذا الَّذي سَفَّهَ أَحْلامَنا ، وحَقَّرَ آلِهَتَنا ، وفَرَّقَ جَماعَتَنا ؛ لأُريحَ قُرَيْشًا مِنْهُ ومِنْ شَرِّهِ . »

قالَ نُعَيْمٌ : « أَوَ تَرى قَوْمَهُ بَني عَبْدِ مَنافٍ يَتْرُكونَهُ لَكَ ؟ »

فَأجابَهُ عُمَرُ : « فَلْيَفْعَلوا ماشاءوا . . لا بُدَّلي مِنْ قَتْلِهِ ! »

قالَ نُعَيْمٌ : « إنْ كُنْتَ لا بُدَّ فاعِلاً ؛ فابْدأْ بأَهْلِكَ . »

صَمتَ عُمَرُ قليلاً ، ثُمَّ قالَ في نَبْرَةٍ غاضِبَةٍ : «وماذا صَنَعَ أَهْلي ؟»

أجابَ نُعَيْمٌ : « لَقَدْ أَسْلَمَتْ أُخْتُكَ فاطِمَةُ وزَوْجُها . »

واسْتَشاطَ عُمَرُ غضَبًا ؛ إذْ كَيْفَ تَجْرُؤُ أُخْتُهُ وابْنُ عَمِّهِ على تَرْكِ دِينِ الآباءِ ، والدُّخولِ في الإسْلامِ ! وكَيْفَ اسْتَطاعَ الإسْلامُ أَنْ يَقْهَرَ عُمَرَ في دارِهِ !

انْحَرَفَ عُمَرُ عَنِ الطَّريقِ إلى دارِ الأَرْقَمِ ، وسَلَكَ الطَّريقَ إلى بَيْتِ أُخْتِهِ و ابْنِ عَمِّهِ ، وحينَ بَلَغَ البابَ سَمِعَ هَيْنَمَةً (صَوْتًا خافِتًا) لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَبَيَّنَ مُحْتَواها ؛ فَقَدْ كانَتْ أَصْواتًا خَفِيَّةً لا تَكادُ تَبينُ . انْتَظَرَ لَحْظَةً ثُمَّ طَرَقَ البابَ ، فَلَمّا عَرَفوا أَنَّهُ عُمَرُ أَسْرَعَ « خَبّابُ بْنُ الأَرَتِّ » بالاخْتِفاءِ ، فَقَدْ كانَ يُقْرِئُ فاطِمَةَ وزَوْجَها القُرْآنَ ، وأَسْرَعَتْ فاطِمَةُ فَوَضَعَتِ الصَّحيفَةَ الَّتي كانوا يَقْرَءونَ

مِنْها تَحْتَ فَخْذِها ، وقامَ زَوْجُها إلى البابِ فَفَتَحَهُ .

دَخَلَ عُمَرُ فَسَأَلَ : « ما هَذِهِ الهَيْنَمَةُ الَّتي سَمِعْتُ عِنْدَكُما ؟»

فَنَفَيا أَنَّها كانَتْ عِنْدَهُما ، فامْتَدَّتْ يَدُهُ و لَطَمَ ابْنَ عَمِّهِ زَوْجَ أُخْتِهِ لَطْمَةً قَوِيَّةً ؛ فَسَقَطَ عَلى الأَرْضِ ، فانْبَرَتْ لَهُ أُخْتُهُ فاطِمَةُ قائِلَةً : « لَقَدْ كُنّا نَقْرَأُ القُرْآنَ . لَقَدْ أَسْلَمْنا ؛ فافْعَلْ ما تَشاءُ ، فَلَنْ تَبْلُغَ مِنّا شَيْئًا . »

وامْتَدَّتْ يَدُ عُمَرَ مَرَّةً أُخْرى فَضَرَبَ أُخْتَهُ فَشَجَّ رَأْسَها ، وسالَ الدَّمُ مِنْ جَبْهَتِها غَزيرًا ، فَمَسَّ شَغافَ قَلْبِ عُمَرَ ، وتَفَجَّرَتْ يَنابيعُ الرَّحْمَةِ في قَلْبِهِ ، وقالَ لأُخْتِهِ في حَنانٍ دافِقٍ : « أَريني الصَّحيفَةَ الَّتي مَعَكِ . »

قالَتْ : « لا ، حَتّى تَتَطَهَّرَ . »

فَتَطَهَّرَ عُمَرُ ، وأَمْسَكَ الصَّحيفَةَ يَقْرَأُ ما فيها :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ . طَهَ . ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ

القُرْآنَ لِتشقى . إلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى . تَنْزيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمواتِ العُلى . الرَّحْمَنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى . لَهُ ما في السَّمواتِ وما في الأَرْضِ وما بَيْنَهُما وما تَحْتَ الثَّرى . وإنْ تَجْهَرْ بالقَوْلِ فَإنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفى . اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنى ﴾ .

وكانَ صَوْتُهُ يَتَلَوَّنُ مَعَ كُلِّ آيَةٍ يَقْرَؤُها ، ونَبْرَتُهُ تَرِقُّ رِقَّةً بالِغَةً . فَلَمّا أَحَسَّ « خَبّابٌ » رِقَّةَ صَوْتِهِ ، ولُيونَةَ نَبْرَتِهِ – خَرَجَ مِنْ مَخْبَئِهِ ، و قالَ لَهُ :

« أَرْجو أَنْ يَكونَ اللهُ قَدِ اسْتَجابَ دَعْوَةَ نَبِيِّهِ فيكَ ، يا عُمَرُ ؛ فَقَدْ سَمِعْتُهُ يَدْعو اللهَ أَنْ يُعِزَّ الإسْلامَ بِأَحَدِ العُمَرَيْنِ : عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ و عَمْرِو بْنِ هِشام . »

وأَعْطى عُمَرُ الصَّحيفَةَ لأُخْتِهِ في هُدوءٍ ، وانْطَلَقَ مُسْرِعًا إلى دارِ الأَرْقَمِ .

طَرَقَ عُمَرُ بابَ دارِ الأَرْقَمِ ، و نَظَرَ بَعْضُ الصَّحابَةِ مِنْ فُرْجَةٍ في البابِ ، فَعادَ مُسْرِعًا وفي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ

الرَّهْبَةِ ، و قالَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ : « إنَّهُ عُمَرُ ! »

ونَظَرَ الصَّحابَةُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ، وكَأَنَّهُمْ يَقولونَ : « ما لَنا ولِهَذا الرَّجُلِ ؟ وما الَّذي جاءَ بِهِ إلَيْنا ؟ » وقَطَعَ حَمْزَةُ رضي الله عنه حَبْلَ الصَّمْتِ قائِلاً :

« إئْذَنْ لَهُ ، يا رَسولَ اللهِ ، فَإنْ كانَ يُريدُ خَيْرًا بَذَلْناهُ لَهُ ، و إنْ كانَ يُريدُ شَرًّا قَتَلْناهُ بِسَيْفِهِ . »

فُتِحَ البابُ ، ودَخَلَ عُمَرُ ، وتَلَقّاهُ رَسولُ اللهِ ﷺ ، وأَخَذَ بِخِناقِهِ ، وجَذَبَهُ في شِدَّةٍ ، وقالَ لَهُ : « أَما آنَ لَكَ أَنْ تُسْلِمَ ، يا ابْنَ الخَطّابِ ؟ »

فَأَجابَهُ عُمَرُ : « أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلا اللهُ و أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسولُ اللهِ . »

وحينَئِذٍ كَبَّرَ المُسْلِمونَ تَكْبيرَةً عالِيَةً ، ارْتَجَّتْ لَها أَرْجاءُ المَسْجِدِ الحَرامِ ، واهْتَزَّتْ لَها قُلوبُ المُشْرِكينَ ، وانْخَلَعَتْ أَفْئِدَتُهُمْ ، وهُمْ يَتَساءَلونَ : « ماذا حَدَثَ ؟ »

هَدَأَتْ نُفوسُ الْمُسْلِمينَ في دارِ الأَرْقَمِ ، واطْمَأَنَّتْ صُدورُهُمْ ، فَقالَ عُمَرُ : « يا رَسولَ اللهِ ، أَلَسْنا عَلى الحَقِّ ؟ وأَلَيْسوا عَلى الباطِلِ ؟»

أَجابَ ﷺ : « بَلى . »

قالَ عُمَرُ : « فَعَلامَ إِذاً نَسْتَخْفي بِدينِنا ؟»

وخَرَجَ الْمُسْلِمونَ مِنْ دارِ الأَرْقَمِ في صَفَّيْنِ - وكانوا أَرْبَعينَ رَجُلاً - عَلى رَأْسِ أَحَدِ الصَّفَّيْنِ حَمْزَةُ ، وعَلى رَأْسِ الآخَرِ عُمَرُ ، ودَخَلوا الْمَسْجِدَ الحَرامَ يَطوفونَ بِالكَعْبَةِ و يُصَلّونَ .

ولَمّا رَأى الْمُشْرِكونَ ذَلِكَ بُهِتوا و دُهِشوا ، وأَدْرَكوا أَنَّهُمْ مَهْما يَصْنَعوا فَلَنْ يَسْتَطيعوا أَنْ يُطْفِئوا نورَ اللهِ ، ويُوقِفوا حَرَكَةَ دَعْوَتِهِ .

ومُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ أَصْبَحَ عُمَرُ ﵁ يُعْرَفُ بِـ« الفاروقِ » كَما لَقَّبَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ . وهَبَطَ جِبْريلُ - ؑ - يُقْرِئُ

الرَّسولَ ﷺ السَّلامَ ، ويُهَنِّئُهُ بِإِسْلامِ عُمَرَ ، ويَقولُ لَهُ : « إِنَّ أَهْلَ السَّماءِ قَدِ اسْتَبْشَروا بِهِ خَيْرًا . »

* * *

ومُنْذُ ذَلِكَ التّاريخِ وَضَعَ عُمَرُ ﵁ كُلَّ طاقَتِهِ في سَبيلِ الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ ، و وَظَّفَ كُلَّ قُوَّتِهِ في سَبيلِ الدِّفاعِ عَنْها ، لَمْ يَأْلُ في ذَلِكَ جَهْدًا ، ولَمْ يَدَّخِرْ وُسْعًا ، وبَعْدَ أَنْ كانَ يُؤْذي الْمُسْلِمينَ و يُعَنِّتُهُمْ - أَصْبَحَ يَنْصَبُّ عَلَيْهِ الإِيذاءُ ، وتُؤْخَذُ عَلَيْهِ السُّبُلُ ، وتُسَدُّ عَلَيْهِ الْمَسالِكُ ، وهُوَ بِكُلِّ ذَلِكَ راضٍ سَعيدٌ ؛ لأَنَّهُ يُكَفِّرُ عَمّا فَعَلَهُ بِالْمُسْلِمينَ قَبْلَ إِسْلامِهِ ، ولأَنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ ما يُفْعَلُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمينَ .

ظَلَّ عُمَرُ ﵁ كَذَلِكَ حَتّى كانَتِ الهِجْرَةُ إِلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وكانَ الْمُسْلِمونَ يُهاجِرونَ في خُفْيَةٍ ؛ كَيْلا يَتَعَرَّضَ لَهُمُ الْمُشْرِكونَ فَيَرُدّوهُمْ إِلى التَّنْكيلِ والتَّعْذيبِ . وكانَ الْمُشْرِكونَ يَخْشَوْنَ مِنْ هِجْرَةِ الْمُسْلِمينَ إِلى

الْمَدينَةِ ، حَتّى لا تَقومَ لَهُمْ في الْمَدينَةِ قائِمَةٌ ، وَتَتَكَوَّنَ لَهُمْ قُوَّةٌ يُحْسَبُ حِسابُها ، وَلَعَلَّها تَقْطَعُ الطَّريقَ عَلى تِجارَتِهِمْ ؛ فَتَبورَ ، وَيَحُلَّ بِها خُسْرانٌ شَديدٌ . لَكِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حينَ أَذِنَ الرَّسولُ ﷺ لَهُ في الهِجْرَةِ ، لَمْ يَسْتَتِرْ بِهِجْرَتِهِ ، وَلَمْ يَخْشَ قُوَّةَ قُرَيْشٍ وَبَطْشَها ؛ بَلْ ذَهَبَ إِلى الْمَسْجِدِ الحَرامِ فَتَطَوَّفَ بِالكَعْبَةِ كَما أَحَبَّ ، ثُمَّ وَقَفَ عَلى أَنْدِيَةِ قُرَيْشٍ وَقالَ بِصَوْتِهِ الجَهْوَرِيِّ الشَّديدِ :

« يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنّي مُهاجِرٌ إِلى الْمَدينَةِ ، فَمَنْ أَرادَ أَنْ تَثْكَلَهُ أُمُّهُ ، أَوْ يَيْتَمَ وَلَدُهُ ، أَوْ تُرْمِلَ زَوْجُهُ - فَلْيَتْبَعْني وَراءَ هَذا الوادي . »

فَخَنَعَتْ قُرَيْشٌ وَذَلَّتْ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ واحِدٌ مِنْ شَبابِها أَوْ شُيوخِها أَنْ يُعارِضَهُ في هِجْرَتِهِ ، أَوْ يَخْرُجَ وَراءَهُ لِيَصُدَّهُ .

وَلَبِثَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الْمَدينَةِ يَنْتَظِرُ مَقْدَمَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، حَتّى إِذا قَدِمَ وَبَدَأَ يُرْسي قَواعِدَ الدَّوْلَةِ ، وَيُوَضِّحُ

مَعالِمَها - كانَ عُمَرُ مَعَ أَبي بَكْرٍ نِعْمَ الوَزيرانِ ، يُشيرانِ عَلَيْهِ فيما يَعْرِضُهُ عَلَيْهِما مِنْ أُمورِ الْمُسْلِمينَ . وَقَدْ نَزَلَ القُرْآنُ الكَريمُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ يُؤَيِّدُ رَأْيَ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ، كَما في مَسْأَلَةِ أَسْرى بَدْرٍ ، وَفي مَسْأَلَةِ الحِجابِ .

وَانْتَقَلَ الرَّسولُ الكَريمُ إِلى الرَّفيقِ الأَعْلى ، فَضاقَتْ نَفْسُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ضيقًا شَديدًا ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْتَوْعِبَ أَنَّ الرَّسولَ قَدْ ماتَ ، وَأَنَّ وَحْيَ السَّماءِ قَدِ انْقَطَعَ عَنِ الأَرْضِ - فَشَهَرَ سَيْفَهُ ، وَراحَ يَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ كُلَّ مَنْ يَقولُ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ ماتَ ، حَتّى جاءَ أَبو بَكْرٍ فَأَشارَ إِلى جُموعِ الْمُسْلِمينَ أَنْ يَهْدَءوا ، وَقالَ :

« عَلى رِسْلِكَ (مَهْلَكَ) يا عُمَرُ ! »

ثُمَّ وَجَّهَ كَلامَهُ لِلنّاسِ قائِلاً : « أَيُّها النّاسُ ، مَنْ كانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ ماتَ . وَمَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ ، فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَموتُ ! »

ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) : ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلا رَسولٌ

قَدْ خلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللهُ الشّاكِرِينَ ﴾ . فَهَدَأَتْ نَفْسُ عُمَرَ الثّائِرَةُ ، وَسَكَنَ خاطِرُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: « واللهِ ، كَأَنّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الآيَةَ مِنْ قَبْلُ !»

وانْطَلَقَ مَعَ أَبي بَكْرٍ إلى سَقيفَةِ بَني ساعِدَةَ حينَ بَلَغَهُما الخَبَرُ أَنَّ الْمُسْلِمينَ - وخاصَّةً الأَنْصارَ - قَدِ اجْتَمَعوا لاخْتِيارِ خَليفَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وكانَ لَهُ مَوْقِفٌ شُجاعٌ ذَكِيٌّ ، أَخْمَدَ نارَ الخِلافِ الَّذي كانَ قَدْ بَدَأَ يُطِلُّ بِرَأْسِهِ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ في شَأْنِ الخِلافَةِ - إذْ بايَعَ أَبا بَكْرٍ فَتَبِعَهُ الْمُسْلِمونَ يُبايِعونَ .

وكانَ رضي الله عنه لأَبي بَكْرٍ نِعْمَ الوَزيرُ ، وقَدْ أَلَحَّ عَلى أَبي بَكْرٍ في جَمْعِ القُرْآنِ الكَريمِ في مُصْحَفٍ واحِدٍ ، بَعْدَ أَنْ رَأى القُرّاءَ والحُفّاظَ قَدْ سَقَطَ كَثيرٌ مِنْهُمْ شُهَداءَ في حَرْبِ الْمُرْتَدّينَ .

وما إنِ اسْتَقَرَّتْ أُمورُ الْمُسْلِمينَ ، وعادَتِ الجَزيرَةُ العَرَبِيَّةُ إلى وَحْدَتِها ، وانْطَلَقَتْ جُيوشُ الْمُسْلِمينَ زاحِفَةً إلى بِلادِ الفُرْسِ والرُّومِ - حَتّى بَدَأَ الْمَرَضُ يَزْحَفُ نَحْوَ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه . ورَأى أَبو بَكْرٍ أَنَّهُ قَدْ كادَتْ تَحْدُثُ فِتْنَةٌ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ في اخْتِيارِ الخَليفَةِ ، كَما رَأى أَنَّ جُيوشَ الْمُسْلِمينَ تَخوضُ أَقْسى المَعارِكِ وأَشَدَّها ، وهِيَ في حاجَةٍ إلى عَوْنٍ دائِمٍ ، ومَدَدٍ مُتَّصِلٍ ، مِنْ عاصِمَةِ الخِلافَةِ - عَوْنٍ ومَدَدٍ بالرَّأْيِ والسِّلاحِ والرِّجالِ .

وقَرَّ في نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ تَرَكَ الْمُسْلِمينَ دونَ أَنْ يَعْهَدَ إلى أَحَدِهِمْ بالخِلافَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، ويَأْخُذَ لَهُ البَيْعَةَ قَبْلَ مَوْتِهِ - فَقَدْ تَضْطَرِبُ أُمورُهُمْ اضْطِرابًا شَديدًا ، وقَدْ يَفْعَلُ الاضْطِرابُ فِعْلَهُ في الجُيوشِ الْمُحارِبَةِ ، فَيُؤَدّي ذَلِكَ إلى ذَهابِ ريحِها (قُوَّتِها) وإضْعافِ شَأْنِها ، بَلْ إلى هَزيمَتِها الْمُنْكَرَةِ .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كُلِّهِ عَزَمَ أَبو بَكْرٍ عَلى أَنْ يَسْتَشيرَ

الْمُسْلِمينَ ، وخاصَّةً كِبارَ الصَّحابَةِ ، فِيمَنْ يَخْتارُهُ خَليفَةً مِنْ بَعْدِهِ ، ولَمْ يَجِدْ غَيْرَ « عُمَرَ » أَهْلاً لِحَمْلِ هَذِهِ الأَمانَةِ ، والقُدْرَةِ عَلى تَأْدِيَتِها خَيْرَ أَداءٍ . وقالَ لِلصَّحابَةِ :

« سَأَقولُ لِرَبِّي حينَ أَلْقاهُ : اخْتَرْتُ لِلْمُسْلِمينَ خَيْرَ أَتْباعِ نَبِيِّكَ ﷺ . »

وكَتَبَ وَثيقَةً بِذَلِكَ ، أَخَذَ بِمُقْتَضاها عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ رضي الله عنه البَيْعَةَ لِعُمَرَ ، وأَصْبَحَ هُوَ الخَليفَةَ بَعْدَ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه ، وتَلَقَّبَ بِلَقَبِ « أَميرِ الْمُؤْمِنينَ » .

* * *

كانَ أَوَّلَ عَمَلٍ قامَ بِهِ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عُمَرُ رضي الله عنه أَنْ خَطَبَ في النّاسِ ، يُعْلِنُ لَهُمْ طَريقَتَهُ في الحُكْمِ ، ويُبَيِّنُ لَهُمْ أُسُسَها ومَعالِمَها ، فَقالَ :

« بَلَغَني أَنَّ النّاسَ قَدْ هابوا شِدَّتي ، وخافوا غِلْظَتي ، وقالوا : لَقَدْ كانَ يَشْتَدُّ عَلَيْنا ورَسولُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِنا ،

ويَشْتَدُّ عَلَيْنا وأَبو بَكْرٍ خَليفَتُنا ، فَكَيْفَ بِهِ وقَدْ صارَتِ الأُمورُ إِلَيْهِ ؟

« أَيُّها النّاسُ ، لَقَدْ كُنْتُ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ جُنْدِيَّهُ الْمُطيعَ ، وخادِمَهُ الأَمينَ ، وكانَ لا يَبْلُغُ أَحَدٌ صِفَتَهُ مِنَ الرِّقَّةِ والرَّحْمَةِ ، واللِّينِ والعَطْفِ ، فَكُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ سَيْفاً مَسْلولاً ، يَضَعُهُ كَما يَشاءُ أَوْ يُغْمِدُهُ . ثُمَّ وَلِيَ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ أَبو بَكْرٍ ، وهُوَ مَنْ لا يُنْكِرُ أَحَدٌ رَحْمَتَهُ ولِينَهُ ، ورِقَّتَهُ ودَعَتَهُ ، فَكُنْتُ خادِمَهُ وجُنْدِيَّهُ كَذَلِكَ ، أَخْلِطُ شِدَّتي بِلِينِهِ ، وغِلْظَتي بِرِقَّتِهِ ، فَكُنْتُ سَيْفَهُ ، يُغْمِدُني أَوْ يَدَعُني أَمْضي إِلى ما يُريد .

« أَمّا الآنَ - وقَدْ أَرادَ اللهُ أَنْ أَتَوَلّى أَمْرَكُمْ - فاعْلَموا أَنَّ شِدَّتي قَدْ زادَتْ ، لَكِنْ عَلى الظّالِمينَ والْمُعْتَدينَ ، أَمّا أَهْلُ السَّلامَةِ والإِنْصافِ - فَأَنا أَلْيَنُ لَهُمْ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ . ولَسْتُ تارِكاً أَحَداً يَظْلِمُ غَيْرَهُ ، أَوْ يَنْتَقِصُ حَقَّهُ ، حَتّى أَضَعَ خَدَّهُ عَلى الأَرْضِ ، وآخُذَ الحَقَّ مِنْهُ . أَمّا أَهْلُ

الحَقِّ والعَدْلِ ، فَإنّي أَضَعُ لَهُمْ خَدّي عَلى الأَرْضِ حُبّا وإجْلالاً !»

سارَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عُمَرُ في الرَّعِيَّةِ سيرَةَ العَدْلِ والإنْصافِ ، والرَّحْمَةِ واللّينِ ، يُراقِبُ رَبَّهُ في كُلِّ تَصَرُّفٍ ، ويَضْرَعُ إلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ بيَدِهِ في كُلِّ مَوْقِفٍ . . يَضْرِبُ في شَوارِعِ الْمَدينَةِ ودُروبِها ، يَتَعَرَّفُ أَحْوالَ النّاسِ . وقَدْ رَأى مَرَّةً شَيْخًا يَهودِيًّا يَسْتَجْدي النّاسَ ، فَسَأَلَهُ : «ما الَّذي أَلْجَأَكَ إلى هَذا ؟» فَأَجابَهُ الشَّيْخُ اليَهودِيُّ : «السِّنُّ والجِزْيَةُ والحاجَةُ .»

فَبَعَثَ إلى صاحِبِ بَيْتِ المالِ ، وقالَ لَهُ :

«اُنْظُرْ هَذا وأَمْثالَهُ ، فاجْعَلْ لَهُمْ راتِبًا مِنْ بَيْتِ المالِ يَفي بِحاجَتِهِمْ ، فَواللهِ ما أَنْصَفْناهُ ؛ إذْ نَحْنُ أَكَلْنا شَبيبَتَهُ ، ثُمَّ خَذَلْناهُ في هَرَمِهِ . إنَّهُ مِنْ مَساكينِ أَهْلِ الكِتابِ ، والصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ والْمَساكينِ .»

وكانَ يُوَلّي الوُلاةَ ويُدَقِّقُ في اخْتِيارِهِمْ ، ويُتابِعُ

أَخْبارَهُمْ ، ويَسْأَلُ عَنْ سيرَتِهِمْ في وِلاياتِهِمْ . ويَرى أَنَّهُ لا يُنْجيهِ مِنَ التَّبِعَةِ ، ولا يُعْفيهِ مِنَ الْمَسْئوليَّةِ - حُسْنُ اخْتِيارِ الوالي ، بَلْ لا بُدَّ مِنْ مُتابَعَةِ أَعْمالِهِ ؛ لِيَنْظُرَ سيرَتَهُ في وِلايَتِهِ ، وطَريقَتَهُ في عَمَلِهِ . وكانَ يَقْتَصُّ مِنْهُمْ لِكُلِّ مَظْلومٍ يَرْفَعُ إلَيْهِ مَظْلَمَةً مِنَ الوالي أَوْ أَهْلِهِ ، كَما فَعَلَ مَعَ ابْنِ عَمْرِو بْنِ العاصِ والشّابِّ القِبْطِيِّ . وكانَ يُحْصي أَمْوالَ الوالي قَبْلَ الوِلايَةِ ، ويُحْصيها في أَثْنائِها ، لِيَنْظُرَ في زِيادَتِها ونَمائِها . فَإنْ كانَتْ فاحِشَةً قاسَمَهُ أَوْ صادَرَها وعَزَلَهُ .

لَمْ يَتَوانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تَنْفيذِ ما أَعْلَنَهُ ، ولَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ ذَلِكَ مَرَّةً واحِدَةً . ظَلَمَ أَبو سُفْيانَ أَحَدَ الْمُسْلِمينَ ، فَشَكاهُ إلى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ولَمّا تَبَيَّنَ لَهُ وَجْهُ الحَقِّ ، أَمَرَ أَبا سُفْيانَ أَنْ يَرُدَّ إلى الرَّجُلِ حَقَّهُ ، فَتَقاعَسَ أَبو سُفْيانَ وتَرَدَّدَ ، فَما كانَ مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلا أَنْ عَلاهُ بالدِّرَّةِ (السَّوْطِ) ، ولَمْ يَدَعْهُ حَتّى أَعادَ الحَقَّ إلى نِصابِهِ .

وكانَ لَهُ مَعَ « جَبَلَةَ بنِ الأيْهَم » آخِرِ مُلوكِ الغَساسِنَةِ في بِلادِ الشّام مَوْقِفٌ شُجاعٌ ، وكانَ قَدْ أسْلَمَ ، وجاءَ إلى مَكَّةَ حاجّاً ، وبَيْنَما هُوَ يَطوفُ بالكَعْبَةِ وَطِئَ أعرابيٌّ إزارَهُ عَنْ غَيْرِ قَصْد ، فالْتَفَتَ « جَبَلَةُ » وَراءَهُ ، ولَطَمَ الأعْرابيَّ لَطْمَةً قاسِيَةً ، فَرَفَعَ الأعْرابيُّ شَكْواهُ إلى عُمَرَ ﵁ ، فَقَضى « عُمَرُ » بالقِصاص ، وذَلِكَ بأنْ يَلْطِمَ الأعْرابيُّ وَجْهَ المَلِكِ كَما لَطَمَهُ ، فاحْتَجَّ المَلِكُ قائلاً :

« كَيْفَ يَلْطِمُني وأنا مَلِكٌ وهُوَ سُوقَةٌ ؟»

فَأجابَهُ عُمَرُ : «لَقَدْ سَوّى الإسْلامُ بَيْنَكُما .»

ولَمْ يُنْقِذْ جَبَلَةَ مِنَ القِصاصِ إلا أنَّهُ اسْتَمْهَلَ عُمَرَ حَتّى الصَّباحِ ، وفي اللَّيْلِ فَرَّ هارِبًا .

وكَما كانَ عُمَرُ ﵁ شَديدًا في الحَقِّ مَعَ النّاس ، كانَ كَذلِكَ شَديدًا مَعَ أهْلِه . . فَكانَ إذا أصْدَرَ قانونًا جَمَعَ أهْلَهُ وقالَ لَهُمْ : « إنّي أمَرْتُ النّاسَ بكَذا ، أوْ نَهَيْتُهُمْ عَنْ كَذا ، وإنَّ النّاسَ يَنْظُرونَ إلَيْكُمْ ، فَإنْ وَجَدوكُمْ قَد

احْتَرَمْتُمُ القانونَ وهِبْتُموهُ احْتَرَموهُ وهابوهُ ، وإنْ رَأَوْكُمْ قَدْ أهْمَلْتُمُ القانونَ أهْمَلوهُ . وإنّي ، واللهِ ، إنْ رَأَيْتُ أحَدَكُمْ وَقَعَ في الخَطَأ لأُضاعِفَنَّ لَهُ العُقوبَةَ . فَمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنَ اللهِ ومِنّي فَلْيَحْمِها ، ومَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ قَوَّمْناهُ بِشِدَّةٍ حَتّى يَكونَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ . »

كانَ عُمَرُ ﵁ يَرِقُّ لِلضُّعَفاءِ رِقَّةً بالِغَةً ، ويَحْنو عَلَيْهِمْ حُنُوًّا شَديدًا ، وكانَ إحْساسُهُ بالْمَسْئوليَّةِ قَويًا ، يُراقِبُ رَبَّهُ في كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطوها ، ويَسْألُهُ أنْ يَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْمَسْئوليَّةِ لا لَهُ ولا عَلَيْه . قالَ لأبي موسى الأشْعَرِيِّ ذاتَ يَوْمٍ :

« أتَرى ، يا أبا موسى ، أنَّ إسْلامَنا وهِجْرَتَنا وعَمَلَنا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ يَكْفي لِلْكَفافِ ، فَلا يَكونَ لَنا ولا عَلَيْنا ؟»

فَأجابَهُ أبو موسى : « إنَّنا نَطْمَعُ في ما عِنْدَ اللهِ مِنْ ثَوابٍ وجَزاءٍ ، فَقَدْ قَدَّمْنا جُهودَنا لِخِدْمَةِ دينِهِ ، ونُصْرَةِ نَبِيِّهِ . »

قالَ عُمَرُ : « أمّا أنا فَلا أطْمَعُ في غَيْرِ النَّجاةِ . . لا

يَكونُ لي ولا عَلَيَّ . »

وكانَ يُمسِكُ لِحيَتَهُ بِيَدَيْهِ في جَوْفِ اللَّيْلِ ، وقَدِ ابْتَلَّتْ بِدُموعِهِ ، ويَضْرَعُ إلى اللهِ ، ويَبْتَهِلُ في خُشوعٍ ، يَسْأَلُهُ العَوْنَ والسَّدادَ ، ويَقولُ :

« لَوْ أنَّ بَغْلَةً عَثَرَتْ بالعِراقِ لَسَأَلَني اللهُ عَنْها يَوْمَ القِيامَةِ : لِمَ لَمْ أُسَوِّ لَها الطَّريقَ ! »

* * *

وتَبَدَّى إحْساسُهُ بِالْمَسْئوليَّةِ أَبْلَغَ ما يَكونُ في « عامِ الرَّمادَةِ » - ذَلِكَ العامِ السّابِعَ عَشَرَ مِنَ الهِجْرَةِ ، حَيْثُ نَزَلَتْ بِالْمَدينَةِ وما حَوْلَها مِنْ أَرْضِ الجَزيرَةِ العَرَبِيَّةِ حَوادِثُ جِسامٌ : فَقَدِ انْقَطَعَ الْمَطَرُ الهاطِلُ مِنَ السَّماءِ ، وتَحَرَّكَتِ الطَّبَقاتُ البُرْكانِيَّةُ داخِلَ الأَرْضِ ، وسَلَّطَتِ الشَّمْسُ عَلَيْها أَشِعَّتَها الحارِقَةَ ، حَتّى احْتَرَقَ سَطْحُها ، وكَثُرَ عَلَيْهِ الرَّمادُ النّاعِمُ الَّذي تُحَرِّكُهُ الرِّياحُ ، وتَحْمِلُهُ إلى كُلِّ مَكانٍ ، فَسُمِّيَ « عامَ الرَّمادَةِ » .

طالَ انْقِطاعُ الْمَطَرِ ، فَجَفَّ الزَّرْعُ وأَصْبَحَ هَشيمًا تَذْروهُ الرِّياحُ ، ولَمْ تَجِدِ الماشِيَةُ ما تَأْكُلُهُ فَجَفَّتْ ضُروعُها ، وهُزِلَتْ أَجْسامُها ، وماتَ مُعْظَمُها ، ونَفِدَ ما كانَ عِنْدَ النّاسِ مِنْ طَعامٍ ، وهُرِعَ أَهْلُ البادِيَةِ إلى الْمَدينَةِ يَلْتَمِسونَ عِنْدَ أميرِ الْمُؤْمِنينَ زادًا وطَعامًا ، ولَكِنَّ الْمَدينَةَ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مِنَ البادِيَةِ ، فَقَدْ مَسَّتِ الضَّرّاءُ الجَميعَ ، ونَزَلَتِ البَلْوى بِالحَضَرِ والبادِيَةِ عَلى السَّواءِ .

لَمْ تَضْعُفْ قُوَّةُ عُمَرَ ، ولَمْ تَهِنْ عَزيمَتُهُ ، بَلْ واجَهَ الْمَوْقِفَ في شَجاعَةٍ وحَسْمٍ واقْتِدارٍ . شَعَرَ بِآلامِ الْمُسْلِمينَ مِنَ الجوعِ كَما لَمْ يَشْعُرْ بِها أَحَدٌ ، وأَصَرَّ عَلى أَنْ يَعيشَ كَما يَعيشونَ ، ويَطْعَمَ مِمّا يَجِدونَ ، وحَرَّمَ عَلى نَفْسِهِ ما لا يَجِدونَ ، حَتّى تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وهُزِلَ جِسْمُهُ ، وقالَ عَنْهُ بَعْضُ الصَّحابَةِ : « لَوْلا أَنَّ اللهَ رَفَعَ عَنّا الضُّرَّ عامَ الرَّمادَةِ لَظَنَنّا عُمَرَ يَموتُ هَمًّا بِأَمْرِ الْمُسْلِمينَ . »

كَتَبَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى الوُلاةِ في مِصْرَ

وبلادِ الشّامِ والعِراقِ رِسالَةً قَصيرَةً ، عَميقَةَ التَّأْثيرِ ، يَقولُ فيها :

« سَلامُ اللهِ عَلَيْكَ . أمّا بَعْدُ ، أَفَتراني هالِكًا ومَنْ مَعي وتَعيشَ أَنْتَ ومَنْ مَعَكَ ؟ فَوا غَوْثاهُ ! »

كانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يُصْدِرَ إلى الوُلاةِ أَوامِرَهُ بِأَنْ يُمِدّوهُ بِالطَّعامِ ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ، وجَعَلَ رِسالَتَهُ القَصيرَةَ تُوازِنُ بَيْنَ حالِ الْمُسْلِمينَ في الْمَدينَةِ وما حَوْلَها ، وحالِ الْمُسْلِمينَ في تِلْكَ الأَقاليمِ ، وذَلِكَ لِتَنْبُعَ الْمَعونَةُ مِنْ نُفوسِ الوُلاةِ والشُّعوبِ ، ولِيَرْفَعَ بِذَلِكَ قيمَةَ التَّعاوُنِ والتَّضامُنِ و التَّكافُلِ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ ، فَلا يَصِحُّ أَنْ يَموتَ قَوْمٌ مِنَ الجوعِ ، في حينِ يَموتُ آخَرونَ مِنَ التُّخَمَةِ ، فاللهُ قَدْ أَسْبَغَ نِعَمَهُ عَلى النّاسِ لِيَسْتَمْتِعَ بِها الجَميعُ . قَدْ تَتَفاوَتُ حُظوظُهُمْ مِنْ هَذا الاسْتِمْتاعِ ، ولَكِنْ لا يُفْرَضُ الحِرْمانُ عَلى أَحَدٍ !

وكانَ الوُلاةُ والشُّعوبُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ،

وظَهَرَتْ مَعادِنُهُمُ الإنْسانِيَّةُ أَنْقى وأَصْفى ما تَكونُ ، فَجاءَ أَبو عُبَيْدَةَ مِنْ حِمْصَ في أَرْبَعَةِ آلافِ راحِلَةٍ ، تَحْمِلُ الطَّعامَ ، وكَتَبَ عَمْرو بْنُ العاصِ والي مِصْرَ إلى عُمَرَ يَقولُ لَهُ : « . . لَبَّيْكَ ثُمَّ لَبَّيْكَ ، قَدْ بَعَثْتُ إلَيْكَ بِقافِلَةٍ أَوَّلُها عِنْدَكَ وآخِرُها عِنْدي . » وأَرْسَلَ مُعاوِيَةُ مِنَ الشّامِ ثَلاثَةَ آلافِ بَعيرٍ مُحَمَّلٍ بِالطَّعامِ ، كَما أَرْسَلَ سَعْدُ بْنُ أَبي وَقّاصٍ مِنَ العِراقِ أَلْفَ بَعيرٍ تَحْمِلُ الدَّقيقَ .

ولَمْ تَكُنْ هَذِهِ القَوافِلُ مُحَمَّلَةً بِالطَّعامِ فَحَسْبُ ؛ بَلْ كانَتْ تَحْمِلُ الأَكْسِيَةَ وغَيْرَها مِمّا يَحْتاجُهُ النّاسُ .

ولَمْ يَقْتَصِرِ الأَمْرُ عَلى الوُلاةِ والشُّعوبِ ، بَلْ إنَّ الصَّحابَةَ الَّذينَ آتاهُمُ اللهُ المالَ ، وبَسَطَ لَهُمْ في الرِّزْقِ جَعَلوا ما آتاهُمُ اللهُ في سَبيلِ اللهِ .

جاءَتْ قافِلَةٌ كَبيرَةٌ مُحَمَّلَةٌ بِالطَّعامِ والأَكْسِيَةِ إلى عُثْمانَ بْنِ عَفّانَ ، وتَسارَعَ تُجّارُ الْمَدينَةِ يُريدونَ شِراءَها مِنْهُ ، و قالوا لَهُ : نَشْتَريها بِضِعْفِ ثَمَنِها .

فَقالَ لَهُمْ : «زِيدوا .» فَزادوهُ إلى ثَلاثَةِ أَضْعافٍ ،

فَقالَ لَهُمْ : « زِيدوا . »

قالوا : «لا نَسْتَطيعُ الزِّيادَةَ . »

قالَ لَهُمْ : « لَقَدْ جاءَني مَنِ اشْتَراها بِعَشَرَةِ أَمْثالِها . »

نَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ، وقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

« نَحْنُ تُجّارُ الْمَدينَةِ ، فَمَنْ هَذا التّاجِرُ الَّذي اشْتَراها مِنْهُ ؟»

أَدْرَكَ عُثْمانُ ما يَدورُ في خَواطِرِهِمْ ، فَقالَ لَهُمْ : «لَقَدِ اشْتَراها اللهُ مِنّي . هِيَ وما حَمَلَتْ صَدَقَةٌ لِلْمُسْلِمينَ !»

وبَعَثَ بِها إلى بَيْتِ المالِ ، يُوَزِّعُها عُمَرُ رضي الله عنه كَما يَشاءُ !

وكانَ عُمَرُ رضي الله عنه يُرْسِلُ إلى أَطْرافِ الْمَدينَةِ مَنْ يَسْتَقْبِلُ هَذِهِ الْمَعوناتِ ، ويَميلُ بِها إلى حَيْثُ الْمُحْتاجينَ ، فَيُقَسِّمُها بَيْنَهُمْ . وكانَ يَصْنَعُ طَعامًا في بَيْتِهِ وفي بُيوتِ كِبارِ الصَّحابَةِ ، ويَمُدُّ الْمَوائِدَ لِيَأْكُلَ عَلَيْها النّاسُ ،

ويَجْلِسُ بَيْنَهُمْ ويَأْكُلُ مَعَهُمْ . أَمّا الضُّعَفاءُ والْمَرْضى الَّذينَ لا يَسْتَطيعونَ حُضورَ الْمَوائِدِ - فَكانَ يَحْمِلُ الطَّعامَ إلى بُيوتِهِمْ .

و وَضَعَ عُمَرُ دُسْتورًا لِلتَّعاوُنِ بِقَوْلِهِ : « لَوْ لَمْ أَجِدْ لِلنّاسِ ما يَسَعُهُمْ إلا أَنْ أُدْخِلَ عَلى أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ مَنْ يُقاسِمُهُمْ أَنْصافَ بُطونِهِمْ - لَفَعَلْتُ ؛ فَإِنَّ النّاسَ لا يَموتونَ عَلى أَنْصافِ بُطونِهِمْ !»

واجْتازَتِ الْجَزيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمِحْنَةَ الَّتي ابْتَلاها اللهُ بِها ، ونَجَتْ مِنْ هَلاكٍ مُحَقَّقٍ ، بِتَوْفيقٍ مِنَ اللهِ (عَزَّ و جَلَّ) ، وتَضامُنِ الْمُسْلِمينَ وتَكافُلِهِمْ ، تَضامُنًا و تَكامُلاً لَمْ تَبْلُغْهُ الْبَشَرِيَّةُ حَتّى الْيَوْمِ ؛ لأَنَّهُ يَقومُ عَلى أَساسٍ مَتينٍ ، هُوَ ابْتِغاءُ الْفَضْلِ مِنَ اللهِ لا مِنَ النّاسِ ، وانْتِظارُ الْجَزاءِ مِنْهُ وَحْدَهُ ، أَمّا غَيْرُهُ فَلا يُريدونَ مِنْهُمْ جَزاءً ولا شُكورًا .

* * *

واتَّسَعَتْ رُقْعَةُ الدَّوْلَةِ الإسْلامِيَّةِ في عَهْدِ عُمَرَ رضي الله عنه اتِّساعًا كَبيرًا ، فَقَدِ اسْتَطاعَتِ الجُيوشُ الإسْلامِيَّةُ أَنْ تَفْتَحَ قُلوبَ العِبادِ ، قَبْلَ أَنْ تَفْتَحَ البِلادَ ، وأَنْ تُخْرِجَ النّاسَ مِنْ ظُلْمِ القَياصِرَةِ والأَكاسِرَةِ إلى عَدْلِ الإِسْلامِ ، وخَفَقَتْ رايَةُ الإِسْلامِ عَلى رُبوعِ الإِمْبراطورِيَّةِ الفارِسِيَّةِ والإِمْبراطورِيَّةِ الرُّومِيَّةِ . وكانَ لِزامًا عَلى أَميرِ الْمُؤْمِنينَ عُمَرَ رضي الله عنه أَنْ يُنَظِّمَ شُئونَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُتَرامِيَةِ الأَطْرافِ ، وأَنْ يُدَبِّرَ أُمورَها مَهْما تَباعَدَتْ أَقْطارُها ، فَنَهَضَ بِهَذا العِبْءِ التَّنْظيمِيِّ الجَليلِ الخَطيرِ ، كَما لَمْ يَنْهَضْ أَيُّ عَبْقَرِيٍّ في الحُكْمِ والسِّياسَةِ .

بَدَأَ بِرَبْطِ هَذِهِ الأَقْطارِ بَعْضِها بِبَعْضٍ ، ورَبْطِها جَميعًا بِعاصِمَةِ الدَّوْلَةِ (الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ) ، وذَلِكَ عَنْ طَريقِ تَنْظيمِ البَريدِ ، الَّذي أَنْشَأَ لَهُ ديوانًا ، يُشْبِهُ ما نَعْرِفُهُ اليَوْمَ بِوِزارَةِ الْمُواصَلاتِ . وأَنْشَأَ ديوانًا (وِزارَةً) لِكُلِّ عَمَلٍ ذي شَأْنٍ ، فَهَذا ديوانُ الجُنْدِ ، وهَذا ديوانُ القَضاءِ ،

وهَذا ديوانٌ لِلْخَراجِ (الضَّرائِبِ) ، وهَذا ديوانُ الأُعْطِياتِ (الرَّواتِبِ) ، ونَظَّمَ هَذِهِ الرَّواتِبَ تَنْظيمًا دَقيقًا بارِعًا ، وجَعَلَ لأُمَّهاتِ الْمُؤْمِنينَ (زَوْجاتِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم) ، ولِلسّابِقينَ مِنَ الصَّحابَةِ ، ولآلِ بَيْتِ الرَّسولِ الكَريمِ ، نَصيبًا مَوْفورًا . شَكا إِلَيْهِ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ مِنْ أَنَّ عَطاءَهُ أَوْ راتِبَهُ أَدْنى مِنْ عَطاءِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، وهُما في سِنٍّ واحِدَةٍ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ رضي الله عنه نَظْرَةً عاتِبَةً ، وقالَ لَهُ : « وأَيْنَ أَنْتَ مِنْ سِبْطِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم . » أَيِ ابْنِ ابْنَتِهِ . ذَلِكَ أَنَّهُ كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ حُبَّهُ لآلِ بَيْتِ الرَّسولِ وتَقْديرَهُ هُوَ حُبٌّ لِلرَّسولِ الكَريمِ وطاعَةٌ لَهُ . فَقَدْ جاءَهُ رَجُلٌ بِشَكْوى ، ذاتَ مَرَّةٍ ، فَقالَ لَهُ عُمَرُ : « هَيّا بِنا إِلى عَلِيٍّ ابْنِ أَبي طالِبٍ لِيَحْكُمَ فيها . » ولَمّا طَرَقَ البابَ عَلى «عَلِيٍّ» قالَ لَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه : « أَلا كُنْتَ قَدْ بَعَثْتَ في طَلَبي فَجِئْتُكَ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ؟»

فَأَجابَهُ عُمَرُ رضي الله عنه : « أَنْتَ أَوْلى أَنْ نَأْتِيَكَ ! »

لَقَدْ كانَ عُمَرُ رضي الله عنه مُلْهَمًا ، فاسْتَجابَ بِعَبْقَرِيَّتِهِ ، الَّتي لا نَظيرَ لَها ، لِهَذِهِ الحَياةِ الجَديدَةِ ، ولَمْ يَكْتَفِ بِاسْتِنْباطِ ما دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرورَةُ مِنْ نُظُمٍ ، بَلْ عَمِلَ عَلى تَعْديلِ ما دَعَتِ الحاجَةُ إِلى تَعْديلِهِ مِنَ النُّظُمِ السّابِقَةِ . ويَكْفيهِ أَنَّهُ جَعَلَ لِلْمُسْلِمينَ تاريخًا يَبْدَأُ بِالهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّريفَةِ .

لَقَدْ مَلأَ رَسولُ اللهِ ﷺ الدُّنْيا نورًا بِدينِ الإِسْلامِ ، فَأَضاءَ جَنَباتِها ، وأَوْشَكَ هَذا النّورُ أَنْ يَخْبُوَ بَعْدَ وَفاتِهِ ، فَحَفِظَتْهُ هِمَّةُ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه وعَزيمَتُهُ ، ثُمَّ جاءَ عُمَرُ رضي الله عنه فَزَيَّنَ البِناءَ الشّامِخَ ، وأَمَدَّهُ بِأَرْوَعِ النُّظُمِ وأَحْسَنِها . ولا يَزالُ العالَمُ يَسْتَمْتِعُ ويَسْتَضيءُ بِهَذا النّورِ الَّذي مَصْدَرُهُ الرَّسولُ الكَريمُ و صاحِباهُ .

ولَكِنَّ الحاقِدينَ لَمْ تُطِقْ عُيونُهُمْ هَذا النّورَ الباهِرَ ، فَعَمِلوا عَلى إِطْفائِهِ ، وتآمَروا عَلى قَتْلِ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ، وظَنّوا أَنَّ قَتْلَهُ يَعوقُ مَسيرَةَ الدَّعْوَةِ ، ويوقِفُ زَحْفَ الجُيوشِ ، ويَبُثُّ الفِتْنَةَ والاضْطِرابَ في الصُّفوفِ ، فَتَسَلَّلَ

القاتِلُ إِلى المَسْجِدِ ، وعُمَرُ رضي الله عنه يَبْدَأُ في صَلاةِ الصُّبْحِ إِمامًا لِلْمُسْلِمينَ ، وما إِنْ كَبَّرَ عُمَرُ لِلصَّلاةِ حَتّى طَعَنَهُ القاتِلُ بِخَنْجَرِهِ ، واتَّجَهَ المُصَلّونَ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ ، فَأَعْمَلَ فيهِمْ خَنْجَرَهُ طَعْنًا ، فَقَتَلَ وجَرَحَ عَدَدًا مِنْهُمْ ، ولَكِنَّهُمْ تَكاثَروا عَلَيْهِ ، فَأَمْسَكوهُ ، فَطَعَنَ نَفْسَهُ بِخَنْجَرِهِ وانْتَحَرَ .

وحينَ سَقَطَ عُمَرُ رضي الله عنه أَخَذَ بِيَدِ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ » لِيُصَلِّيَ بِالنّاسِ ، وحُمِلَ إِلى بَيْتِهِ وهُوَ مَغْشِيٌّ عَلَيْهِ ، وجُرْحُهُ يَنْزِفُ دَمًا . ولَمّا أَفاقَ قَليلاً سَأَلَ عَمَّنْ طَعَنَهُ ، فَلَمّا عَرَفَ أَنَّهُ « أَبو لُؤْلُؤَةَ المَجوسِيُّ » قالَ :

« الحَمْدُ للهِ الَّذي لَمْ يَجْعَلْ مَنِيَّتي (وَفاتي) بِيَدِ رَجُلٍ يَدَّعي الإِسْلامَ . »

* * *

لَمْ يَسْتَخْلِفْ عُمَرُ رضي الله عنه أَحَدًا بِعَينِهِ ، وإِنَّما تَرَكَ الأَمْرَ شورى في سِتَّةٍ مِنْ كِبارِ الصَّحابَةِ ، تُوُفِّيَ رَسولُ اللهِ ﷺ وهُوَ عَنْهُمْ راضٍ . ورَأى عُمَرُ أَنَّ هَؤُلاءِ السِّتَّةَ هُمْ أَقْدَرُ

النّاسِ عَلى حَمْلِ الأَمانَةِ ، والنُّهوضِ بتكاليفِ الدَّعْوَةِ ، وهُمْ : عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ ، وعَلِيُّ بْنُ أَبي طالِب ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، والزُّبَيْرُ بْنُ العَوّامِ ، وطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ ، وسَعْدُ بْنُ أَبي وَقّاصٍ .

ثُمَّ بَعَثَ إلى أُمِّ المُؤْمِنينَ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يُقْرِئُها السَّلامَ ، ويَسْتَأْذِنُها في أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صاحِبَيْهِ ، الرَّسول (ﷺ) وأبي بَكْرٍ ، فَأَذِنَتْ لَهُ ، فَسَعِدَ بِذَلِكَ سَعادَةً بالِغَةً ، وظَلَّ يُرَدِّدُ ﴿وكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدورًا﴾ ثُمَّ نَظَرَ إلى مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُسْلِمينَ وأَوْصاهُمْ بِقَوْلِهِ :

« أُوصيكُمْ بِكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبِيِّهِ . . وأُوصيكُمْ بالْمُهاجِرينَ والأَنْصارِ . . وأُوصيكُمْ بِالأَعْرابِ وأَهْلِ الذِّمَّةِ . »

ثُمَّ فاضَتْ رُوحُهُ إلى بارِئِها ، ودُفِنَ إلى جِوارِ صاحِبَيْهِ ، ذَلِكَ الَّذي كانَ إسْلامُهُ فَتْحًا ، وهِجْرَتُهُ نَصْرًا ، وإمامَتُهُ رَحْمَةً وعَدْلاً .

أُمُّ الْمُؤْمِنينَ عائِشَةُ بِنْتُ أَبي بَكْرٍ الزَّوْجَةُ الحَبيبَةُ

مِنْ مَآثِرِ « خَوْلَةَ بِنْتِ حَكيم » زَوْجَةِ « عُثْمانَ بْنِ مَظْعون » ، الَّتي تَعْتَزُّ بِها وتَفْخَرُ ، أَنَّها اسْتَطاعَتْ بِلَباقَتِها وحُسْنِ تَدْبيرِها أَنْ تُخْرِجَ نَبِيَّها مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ عالَمِ أَحْزانِهِ ، وتُخَفِّفَ عَنْهُ بَعْضَ آلامِهِ ؛ فَقَدْ كانَ يُبْدي لِصَحْبِهِ ابْتِسامًا ، ويُقْبِلُ عَلى مَجْلِسِهِ مَعَهُمْ مُشْرِقَ الوَجْهِ ، وَضّاحَ الجَبينِ ، ويُخْفي في أَعْماقِ قَلْبِهِ شَجْوًا دَفينًا ، لَمْ يُفارِقْهُ مُنْذُ فارَقَتْهُ زَوْجُهُ السَّيِّدَةُ الطّاهِرَةُ خَديجَةُ . فَما إنْ يَفْزَعُ إلى بَيْتِهِ حَتّى يَضيقَ بِوَحْدَتِهِ ، ويَتَذَكَّرَ مَكانَها مِنْهُ ، وقِيامَها بِالتَّسْرِيَةِ عَنْهُ ، وتَهْوينِ ما يَجِدُهُ في سَبيلِ الدَّعْوَةِ

مِنْ ضُرٍّ و أذًى ، ويَتَبَرَّمَ بهذا الجوِّ الَّذي خلا مِنْ مكانِها ، عَلى الرَّغْمِ مِمّا كانَتِ ابْنَتُهُ أُمُّ كُلْثوم تَبْذُلُهُ مِنْ جَهْدٍ ، وتُحاوِلُ القِيامَ بِبَعْضِ العِبْءِ الَّذي كانَتْ تَنْهَضُ بِهِ أُمُّها ، حَتّى سَمّاها ﷺ « خديجةَ الصُّغْرى » ، ولَكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَبْلُغَ مَبْلَغَها ، ولا أَنْ تَسُدَّ مَسَدَّها .

سَعَتْ « خَوْلَةُ » إلى الرَّسولِ ﷺ ، وقالَتْ لَهُ : « أَلا تَتَزَوَّجُ ، يا رَسولَ اللهِ ، لِتَسْلُوَ بَعْضَ حُزْنِكَ ، وتُؤْنِسَ وَحْشَتَكَ ، وتَجِدَ مَنْ يَرْعى ابْنَتَيْكَ ؟ »

أَجابَها الرَّسولُ الكَريمُ : « ومَنْ أَتَزَوَّجُ يا خَوْلَةُ ؟ »

قالَتْ : « إِنْ شِئْتَ فَثَيِّبًا ، وإِنْ شِئْتَ فَبِكْرًا . »

قالَ الرَّسولُ الكَريمُ : « مَنِ البِكْرُ ومَنِ الثَّيِّبُ ، يا خَوْلَةُ ؟ »

أَجابَتْ خَوْلَةُ : « أَمّا البِكْرُ فابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللهِ إِلَيْكَ- عائِشَةُ بِنْتُ أَبي بَكْرٍ . وأَمّا الثَّيِّبُ فَسَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ ، آمَنَتْ

بِكَ ، واتَّبَعَتْكَ ، وكانَتْ زَوْجَةً لابْنِ عَمِّها « السَّكْرانِ » وهاجَرَتْ مَعَهُ إلى الحَبَشَةِ ، وماتَ عَنْها بَعْدَ عَوْدَتِهِما إلى مَكَّةَ . »

قالَ الرَّسولُ الكَريمُ لِخَوْلَةَ : « إِذًا فاذْكُريني عَلَيْهِما . » أَيْ فاخْطُبيهِما لي .

وانْطَلَقَتْ « خَوْلَةُ » مُسْرِعَةً ، لا تَلْوي عَلى شَيْءٍ ، إلى بَيْتِ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه ، فَلَقِيَتْها زَوْجَتُهُ « أُمُّ رومان » ، فَقالَتْ لَها خَوْلَةُ : « يا أُمَّ رومان ، أَ رَأَيْتِ ما أَدْخَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الخَيْرِ والبَرَكَةِ ؟ »

قالَتْ أُمُّ رومان : « وما ذاكَ ، يا خَوْلَةُ ؟ »

قالَتْ خَوْلَةُ : « أَرْسَلَني رَسولُ اللهِ ﷺ أَخْطُبُ عَلَيْهِ عائِشَةَ . »

قالَتْ أُمُّ رومان : « إِذًا فانْتَظِري حَتّى يَأْتِيَ أَبو بَكْرٍ . » لَبِثَتْ خَوْلَةُ مَعَ أُمِّ رومان بَعْضَ الوَقْتِ ، حَتّى جاءَ أَبو بَكْرٍ فَلَقِيَتْهُ زَوْجَتُهُ أُمُّ رومان ، و وَجْهُها يَفيضُ بِشْرًا

وحُبورًا ، ويَتَهلَّلُ طَلاقَةً و سُرورًا ، فَقالَ لَها أَبو بَكْرٍ :

« ما شَأْنُكِ ، يا أُمَّ رومانَ ، سَرَّكِ اللهُ دائِمًا ؟» ثُمَّ لَمَحَ إلى جِوارِها « خَوْلَةَ » فَحَيّاها .

أَسْرَعَتْ خَوْلَةُ وقالَتْ : « يا أَبا بَكْرٍ ، أَ رَأَيْتَ ما أَدْخَلَ اللهُ عَلَيْكُم مِنَ الخَيْرِ والبَرَكَةِ ؟»

قالَ أَبو بَكْرٍ ، و هُوَ يُرَدِّدُ نَظَرَهُ بَيْنَ زَوْجَتِهِ و خَوْلَةَ : « وما ذاكَ ؟»

قالَتْ خَوْلَةُ : « أَرْسَلَني رَسولُ اللهِ ﷺ أَخْطُبُ عَلَيْهِ ابْنَتَكَ عائِشَةَ . »

لَمْ يُخْفِ أَبو بَكْرٍ فَرْحَتَهُ ، ولَمْ يُغالِبْ سُرورَهُ ، ولَكِنَّهُ قالَ لِخَوْلَةَ : « وهَلْ تَصْلُحُ لَهُ ؟ إِنَّما هِيَ ابْنَةُ أَخيهِ . »

صَمَتَتْ « خَوْلَةُ » ، وأَطْرَقَتْ لَحْظَةً ، ثُمَّ انْفَلَتَتْ مِنْ دارِ أَبي بَكْرٍ مُسْرِعَةً إلى بَيْتِ الرَّسولِ ﷺ ، وأَخْبَرَتْهُ بِما قالَهُ أَبو بَكْرٍ .

فَقالَ لَها الرَّسولُ ﷺ : « اِرْجِعي إِلَيْهِ ، وقولي لَهُ : « أَنْتَ أَخي وأَنا أَخوكَ في الإِسْلامِ ، وابْنَتُكَ تَصْلُحُ لي . »

وأَسْرَعَتْ « خَوْلَةُ » إلى بَيْتِ أَبي بَكْرٍ تُنْبِئُهُ بِما قالَهُ الرَّسولُ الكَريمُ ، فَأَشْرَقَ وَجْهُهُ واسْتَنارَ ، ولَكِنَّ سَحابَةً خَفيفَةً ما لَبِثَتْ أَنْ عَكَّرَتْ هَذا الإِشْراقَ ، وأَخْفَتَتْ مِنْ هَذِهِ الاسْتِنارَةِ ؛ فَعائِشَةُ قَدْ خَطَبَها مِنْ قَبْلُ « مُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ » لابْنِهِ « جُبَيْر » ، ولا بُدَّ لأَبي بَكْرٍ أَنْ يَتَحَلَّلَ مِنْ وَعْدِهِ لِـ « مُطْعِم » قَبْلَ أَنْ يَسْتَجيبَ لِرَغْبَةِ الرَّسولِ الكَريمِ ، الَّتي يُحِبُّ تَلْبِيَتَها ، ويَحْرِصُ عَلى إِجابَتِها ، ولَكِنَّهُ خُلُقُ الإِسْلامِ كَما عَلَّمَهُمُ الرَّسولُ نَفْسُهُ .

لَمَحَتْ « خَوْلَةُ » ما عَلا وَجْهَ أَبي بَكْرٍ ، وما ارْتَسَمَ عَلى مَلامِحِهِ ؛ فَسَأَلَتْهُ مُتَحَيِّرَةً مُتَعَجِّبَةً : « ماذا يا أَبا بَكْرٍ ؟»

ولَكِنَّهُ لَمْ يُجِبْها عَلى سُؤالِها ، بَلْ طَلَبَ مِنْها أَنْ تَنْتَظِرَهُ رَيْثَما يَعودُ ، و وَعَدَها أَنَّهُ لَنْ يُبْطِئَ في العَوْدَةِ ؛ لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ لَهُ أَمْرًا !

ما زالَ العَجَبُ يَتَملَّكُ نَفسَ خَوْلَة ، وما زالَتِ الحَيْرَةُ تَملأُ وَجْهَها ، وتَنْظرُ إلى « أُمِّ رومان » زَوْجَةِ أَبي بَكرٍ فَلا تُحدِّثُها بِشَيْءٍ يَشْفي غَليلَها ، ويُزيلُ حَيْرَتَها وعَجَبَها .

ظَلَّتِ الْمَرْأَتانِ كَذَلِكَ في صَمْتٍ مُطْبِقٍ مُخيفٍ ، تَتَعَجَّلانِ عَوْدَةَ أَبي بَكْرٍ ، ويُخَيَّلُ إِلَيْهِما أَنَّهُ قَدْ غابَ دَهْرًا طَويلاً . ولَكِنْ ما هِيَ إلا لَحَظاتٌ قَليلَةٌ حَتّى عادَ أَبو بَكْرٍ مُتَهَلِّلَ القَسَماتِ ، مُشْرِقَ الأَساريرِ ، فَبادَرَتْهُ زَوْجَتُهُ : « ماذا صَنَعَ اللهُ بِكَ ؟ »

فَأَجابَها : « كُلَّ الخَيْرِ ، يا أُمَّ رومان . »

قالَتْ خَوْلَةُ : « فَأَدْخِلاني في سُرورِكُما ، سَرَّكُما اللهُ دائمًا . »

قالَ لَها أبو بَكْرٍ : « لَقَدْ كانَتْ عائِشَةُ قَدْ خُطِبَتْ عَلى « جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ » قَبْلَ أَنْ تُخْطَبَ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، وكانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَحَلَّلَ مِنَ الوَعْدِ الَّذي وَعَدْتُهُ لِمُطْعِمٍ ، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ ، وقُلْتُ لَهُ : « ما تَقولُ في أَمْرِ

عائِشَةَ ، يا مُطْعِمُ ؟ »

ونَظَرَ « مُطْعِمٌ » إلى زَوْجَتِهِ ، وكَأَنَّهُما قَدْ تَشاوَرا في الأَمْرِ ، فَقالَتْ : « نَخْشى ، يا أَبا بَكْرٍ ، إِنْ زَوَّجْنا هَذا الفَتى مِنِ ابْنَتِكَ أَنْ تُدْخِلَهُ في دينِكَ ، وتَجْعَلَهُ يُفارِقُ دينَ آبائِهِ وأَجْدادِهِ . »

فالْتَفَتُّ إلى مُطْعِمٍ و قُلْتُ لَهُ : « ما تَقولُ أَنْتَ ؟ »

فَأَجابَني : « إِنَّها تَقولُ ما تَسْمَعُ . »

فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِما مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ ، مُسْتَريحَ النَّفْسِ ، مُبْتَهِجَ الخاطِرِ . وحَمِدْتُ اللهَ - عَزَّ و جَلَّ - أَنْ نَجّاني مِنْ نَقْضِ العَهْدِ ، وخُلْفِ الوَعْدِ . »

وما إِنِ اسْتَقَرَّ هَذا الحِوارُ في سَمْعِ أُمِّ رومان حَتّى اسْتَخَفَّها الفَرَحُ ، وصاحَتْ بِأَعْلى صَوْتِها : « الحَمْدُ للهِ الَّذي نَجّاكَ وعافاكَ مِنْ إِخْلافِ الوَعْدِ ، وما أَخْلَفْتَ وَعْدًا عُمْرَكَ كُلَّهُ ، والحَمْدُ للهِ الَّذي أَذْهَبَ مِنْ طَريقِ

ابْنَتكَ جُبَيْرًا وأَباهُ وأُمَّهُ ، ورَزَقَها خَيْرَ زَوْجٍ على سَطْحِ الأَرْضِ ، وزادَنا بِهِ شَرَفًا ومَجْدًا ؛ إِذْ جاءَ الصِّهْرُ والقَرابَةُ بَعْدَ الصِّدْقِ والصَّداقَةِ . »

وتَقَبَّلَ بَيْتُ أَبي بَكْرٍ خِطْبَةَ الرَّسولِ الكَريمِ في فَرْحَةٍ واعْتِزازٍ .

وتَبادَلَ أَبو بَكْرٍ وزَوْجَتُهُ أُمُّ رومان النَّظَراتِ ، وفَهِمَ كُلٌّ مِنْهُما عَنِ الآخَرِ ما يَعْنيه ، فَإِذا كانَتْ عائِشَةُ صَغيرَةَ السِّنِّ، قَليلَةَ الخِبْرَةِ - فَإِنَّ لَها مِنْ ذَكائِها الواعي ، وحِكْمَتِها ورَزانَتِها ما يُعَوِّضُ صِغَرَ السِّنِّ ، ونَقْصَ الخِبْرَةِ ، وضَعْفَ التَّجْرِبَةِ !

وخَلَتْ « أُمُّ رومان » إلى نَفْسِها ، وطافَتْ بِذِهْنِها ذِكْرَياتٌ ، وتَذَكَّرَتْ كلمات لَمْ تَفْهَمْ مَرْماها ، ولَمْ تُدْرِكْ مَغْزاها ، ولَمْ يَسْتَطِعْ عَقْلُها أَنْ يَسْتَوْعِبَها حينَ سَمِعَتْها .

تَذَكَّرَتْ تِلْكَ الأُوَيْقاتِ الحُلْوَةَ الَّتي كانَ يُمَضّيها الرَّسولُ ﷺ في بَيْتِ أَبي بَكْرٍ ، فَيُداعِبُ الطِّفْلَةَ الغَريرَةَ عائِشَةَ ،

ويُضاحِكُها . وكَيْفَ كانَتِ الطِّفْلَةُ تَهِشُّ لِمُداعَبَتِهِ ، وتَسْتَجيبُ لِمُضاحَكَتِهِ في جَذَلٍ وفَرَحٍ وسُرورٍ . واسْتَعادَتْ كَلماتِه ﷺ حينَ كانَ يُوصيها بِأَنْ تُحْسِنَ رِعايَةَ عائِشَةَ ، والعِنايَةَ بِها ، ويَقولُ لَها : « احْفَظيني فيها عِنْدَكِ ، يا أُمَّ رومان !»

ثُمَّ قالَتْ أُمُّ رومان لِنَفْسِها في نَفْسِها : « لَقَدْ حَفِظْتُكَ فيها ، يا رَسولَ اللهِ ، حَتّى دَفَعْتُها إِلَيْكَ واعِيَةً عاقِلَةً ، رَزينَةً فاهِمَةً ، جَميلَةً بارِعَةً ، فَبارَكَ اللهُ لَكَ فيها ، وبارَكَ لَها فيكَ ! »

ولَمْ تَدْهَشْ مَكَّةُ لِهذِهِ الْمُصاهَرَةِ ؛ فَقَدْ تَمَّتْ بَيْنَ أَعَزِّ صاحِبَيْنِ ، وأَوْفى صَديقَيْنِ . ولَمْ تَسْتَنْكِرْ مَكَّةُ أَنْ تُخْطَبَ صَبِيَّةٌ صَغيرَةٌ ، لا تَزالُ تَمْرَحُ وتَلْعَبُ مَعَ صاحِباتِها ولِداتِها إلى رَجُلٍ قَدِ اكْتَهَلَ . ولَمْ يَجِدْ أَلَدُّ خُصومِ الرَّسولِ ﷺ في ذَلِكَ مَطْعَنًا ، وهُمُ الَّذينَ كانوا يَتَلَمَّسونَ لَهُ الْمَطاعِنَ ، بَلْ ويَخْتَلِقونَها اخْتِلاقًا ؛ فَإِنَّ

ذَلِكَ كانَ مِنْ عادَتِهِمُ الَّتي لا يُنْكِرونَها ، ومِنْ طَبيعَتِهِمُ الَّتي لا يُعانِدونَها .

ولَمْ تَرْضَ نَفْسُ الرَّسولِ الأَبِيَّةُ أَنْ تَنْتَزِعَ الصَّبِيَّةَ مِنْ بَيْنِ لِداتِها ، ولا أَنْ تُحَمِّلَها مَسْئولِيَّةَ الحَياةِ الزَّوْجِيَّةِ ، وهِيَ صَبِيَّةٌ غَريرَةٌ لا تَزالُ . واكْتَفى الرَّسولُ الكَريمُ أَنْ يَأْنَسَ إِلَيْها ، ويَسْتَرْوِحَ بِمُداعَباتِها ، حينَ يَمْضي إِلى بَيْتِ صاحِبِهِ أَبي بَكْرٍ ، فَيَجِدُ في تَشاغُلِهِ مَعَها ، ومُشارَكَتِها مَرَحَها - ما يُخَفِّفُ عَنْهُ أَعْباءَهُ ، ويُزيحُ عَنْ كاهِلِهِ بَعْضَ أَثْقالِهِ . وكانَتْ هِيَ تَجِدُ في مُشارَكَةِ هَذا الرَّجُلِ الوَقورِ الهادِئِ الرَّزينِ لَها في مَرَحِها فَرْحَةً غامِرَةً ، و أُنْسًا قَوِيًّا ، فَكانَتْ تَنْتَظِرُ حُضورَهُ في لَهْفَةٍ ، وتَتَشَوَّقُ إِلى رُؤْيَتِهِ ومُجالَسَتِهِ ومُضاحَكَتِهِ . وما تَخَلَّفَ رَسولُ اللهِ ﷺ قَطُّ عَنِ الحُضورِ إِلى بَيْتِ صاحِبِهِ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهارِ ، إِمّا بُكْرَةً و إِمّا عَشِيَّةً .

* * *

وتَمْضي الأَيّامُ ، ويَشْتَدُّ الإِيذاءُ لِلرَّسولِ الكَريمِ وصَحْبِهِ ، ويَأْذَنُ اللهُ لَهُمْ في الهِجْرَةِ إِلى الْمَدينَةِ ، فَقَدْ أَصْبَحَ لَهُمْ فيها إِخْوانٌ وأَنْصارٌ ، ولَمْ يَبْقَ في مَكَّةَ غَيْرُ الرَّسولِ الأَمينِ وأَبي بَكْرٍ وعَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ ، ومَنْ حُبِسَ مِنَ الْمُسْلِمينَ فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الهِجْرَةِ .

وذاتَ يَوْمٍ ، في وَقْتِ الهاجِرَةِ ، حَيْثُ تُصْبِحُ مَكَّةُ شُواظًا مِنَ النّارِ ، فَلا تَدِبُّ في طُرُقاتِها رِجْلٌ ، ولا تَكادُ تُسْمَعُ فيها نَأْمَةٌ - في هَذا الوَقْتِ أَوى النّاسُ إِلى بُيوتِهِمْ ، يَسْتَرْوِحونَ شَيْئًا مِنَ الظِّلِّ ، ويَجِدونَ في القَيْلولَةِ بَعْضَ العَزاءِ عَنْ هَذا الجَوِّ الْمُتَوَهِّجِ العَنيفِ - سَمِعَتْ عائِشَةُ خُطُواتٍ تَدْنو مِنْ بابِ بَيْتِهِمْ ، وعَرَفَتْ فيها خُطُواتِ الرَّسولِ الحَبيبِ ، فَأَسْرَعَتْ مُتَلَهِّفَةً تَفْتَحُ البابَ ، وما إِنْ رَأى أَبو بَكْرٍ رَسولَ اللهِ ﷺ أَمامَهُ حَتّى خَفَقَ قَلْبُهُ ، واشْتَدَّ وَجيبُهُ ، وقالَ : « ما أَتى بِالرَّسولِ ﷺ في هَذا الوَقْتِ إِلا أَمْرٌ حَدَثَ ! »

وكانَ هَذا الأَمْرُ الشَّديدُ الَّذي حدثَ ما يَنْتَظِرُهُ أبو بَكْرٍ مُنْذُ زَمَنٍ - فَقَدْ أذِنَ اللهُ لِرَسولِهِ في الهِجْرَةِ إلى الْمَدينَةِ، وفي أنْ يَكونَ أبو بَكْرٍ لَهُ صاحِبًا .

ويَخْرُجُ الرَّسولُ الكَريمُ وصاحِبُهُ مِنْ مَكَّةَ في خُفْيَةٍ ، وتَتْبَعُهُما رُوحُ عائِشَةَ في قَلَقٍ وهَلَعٍ ولَهْفَةٍ ، ويَتَناهى إلى سَمْعِها ما يَتَحَدَّثُ بِهِ النّاسُ مِنْ مُطارَدَةِ الْمُهاجِرَيْنِ ، ومِنْ رَصْدِ جائِزَةٍ سَنِيَّةٍ لِمَنْ يَرُدُّهُما إلى مَكَّةَ . وتَظَلُّ تَرْقُبُ أُخْتَها أَسْماءَ وهِيَ تَسْعى إلَيْهِما بِالطَّعامِ ثُمَّ تَعودُ فَتَطْمَئِنُ قَلْبُها بِأنَّ الزَّوْجَ والأَبَ في رِعايَةِ اللهِ وأَمانِهِ ، وأَنَّهُما لا يَزالانِ في غارِ ثَوْرٍ ، وأَنَّ عُيونَ قُرَيْشٍ لَمْ تَسْتَطِعِ الوُصولَ إلَيْهِما - فَقَدْ حَماهُما اللهُ بِعَنْكَبوتٍ نَسَجَتْ عَلى فَمِ الغارِ خُيوطَها ، وبِحَمامَتَيْنِ بَنَتْ عَلَيْهِ عُشَّهُما .

وتَمُرُّ اللَّيالي بَطيئَةً مُتَثاقِلَةً ، حالِكَةَ السَّوادِ ، حَتّى كانَتِ اللَّيْلَةُ الثّالِثَةُ ، وعائِشَةُ في مَرْقَبِها تَرْصُدُ الطَّريقَ ،

وتَنْتَظِرُ قُدومَ أُخْتِها أَسْماءَ ، وتُرْهِفُ أُذُنَيْها كَيْ تَتَسَمَّعَ خُطُواتِها وهِيَ تَدِبُّ عَلى الطَّريقِ . وطالَ الانْتِظارُ ، والقَلَقُ يُمَزِّقُ صَدْرَ عائِشَةَ ، ولَوْلا إيمانُها بِاللهِ وبِرَسولِهِ ، وبِأَنَّ اللهَ يَعْصِمُهُ مِنَ النّاسِ - لَوْلا ذَلِكَ لَذَهَبَ بِها الجَزَعُ كُلَّ مَذْهَبٍ ، وطارَتْ بِها الظُّنونُ كُلَّ مَطارٍ !

وبَيْنَما هِيَ كَذَلِكَ يَتَنازَعُها القَلَقُ واللَّهْفَةُ أَبْصَرَتْ أُخْتَها أَسْماءَ تَأْتي لاهِثَةً مُرْهَقَةً ، وتَرى نِطاقَها وقَدْ شُقَّ ، ولَمْ يَبْقَ غَيْرُ نِصْفِهِ ، فَتَخِفُّ إلَيْها مُسْرِعَةً وَجِلَةً ، ولَكِنَّ أُخْتَها تُلْقي إلَيْها في عَجَلَةٍ ما يَسْكُبُ السَّكينَةَ في صَدْرِها ، فَتُنْبِئُها أَنَّ الْمُهاجِرَيْنِ قَدْ غادَرا الغارَ في سَلامٍ وأَمانٍ ، واتَّخَذا طَريقَهُما إلى الْمَدينَةِ ، في رِعايَةِ اللهِ وعِنايَتِهِ !

وتَهْدَأُ نَفْسُ عائِشَةَ ، وتَنْتَظِمُ دَقّاتُ قَلْبِها ، ثُمَّ تَجْلِسُ إلى أُخْتِها لِتَسْمَعَ مِنْها الأَنْباءَ في سُكونٍ و أَناةٍ .

وبَعْدَ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَيْلاءَ ، ذاعَتِ الأَنْباءُ في مَكَّةَ بِأَنَّ الْمُهاجِرَيْنِ قَدْ بَلَغا مَأْمَنَهُما ، وأَنَّهُما الآنَ في الْمَدينَةِ

بَيْنَ الأَنْصارِ والْمُهاجِرينَ - فَسَعِدَ الْمُسْلِمونَ الْمَحْبوسونَ في مَكَّةَ ، وسَعِدَتْ عائِشَةُ وبَيْتُ أَبي بَكْرٍ كُلُّهُ ، كَما سَعِدَ بَيْتُ الرَّسولِ الكَريمِ سَعادَةً غامِرَةً بِهَذِهِ الأَنْباءِ الرّائِعَةِ .

وما إِنِ اسْتَقَرَّ الْمُقامُ بِالْمُهاجِرَيْنِ في الْمَدينَةِ ، واطْمَأَنَّتْ بِهِما الحالُ - حَتّى بَعَثا مَنْ يَأْتيهِما بِأَهْلِهِما مِنْ مَكَّةَ .

ورَقَصَ قَلْبُ عائِشَةَ مِنَ الفَرْحَةِ ، فَبَعْدَ قَليلٍ تَكونُ قَريبَةً مِنَ الرَّسولِ الحَبيبِ .

وفي الطَّريقِ نَفَرَ البَعيرُ الَّذي كانَتْ تَمْتَطيهِ ، فَصاحَتْ أُمُّها « أُمُّ رومانَ » : « وا بِنْتاهُ ! وا عَروساهُ ! »

واسْتَطاعَ أَخوها عَبْدُ اللهِ وزَيْدُ بْنُ حارِثَةَ وطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ أَنْ يَرُدّوا البَعيرَ مِنْ نِفارِهِ ، وأَنْ يُعيدوهُ إِلى صَوابِهِ ، فَأَغْمَضَتْ عائِشَةُ عَيْنَيْها ، وسَرَحَتْ بِخَيالِها تَتَصَوَّرُ فَرْحَةَ اللِّقاءِ السَّعيدِ ، وتَعيشُ سُرورَهُ ونَشْوَتَهُ .

* * *

اسْتَقَرَّ الْمُهاجِرونَ في الْمَدينَةِ ، واطْمَأَنَّ بِهِمُ الْمُقامُ ، واجْتَهَدوا في بِناءِ الْمَسْجِدِ ، وبِناءِ بَيْتِ الرَّسولِ ﷺ . وحينَئِذٍ تَحَدَّثَ أَبو بَكْرٍ في إِتْمامِ الزَّواجِ الَّذي عَقَدَهُ في مَكَّةَ مُنْذُ ثَلاثِ سَنَواتٍ .

وبادَرَ الرَّسولُ الكَريمُ إِلى ذَلِكَ ، و سَعى إِلى بَيْتِ أَبي بَكْرٍ ، واجْتَمَعَ رِجالٌ ونِسْوَةٌ مِنَ الأَنْصارِ ، وخَرَجَتْ « أُمُّ رومانَ » إِلى حَيْثُ كانَتْ تَلْعَبُ عائِشَةُ مَعَ الجَواري ، فَنادَتْها ومَسَحَتْ شَعْرَها و غَسَلَتْ وَجْهَها ، و تَسَلَّمَتْها « أَسْماءُ بِنْتُ يَزيدَ بْنِ السَّكَنِ » فَأَصْلَحَتْ شَأْنَها ، وهَيَّأَتْها لِزَوْجِها ، ثُمَّ قَدَّمَتْها أُمُّها إِلى النَّبِيِّ ﷺ وقالَتْ لَهُ : « هَؤُلاءِ أَهْلُكَ ، فَبارَكَ اللهُ لَكَ فيهِنَّ ، وبارَكَ لَهُنَّ فيكَ . »

وانْتَقَلَتْ عائِشَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) إِلى بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ ، وكانَ بَيْتًا بَسيطًا مُتَواضِعًا ، حَوائِطُهُ مِنَ اللَّبِنِ ، وسَقْفُهُ مِنْ جَريدِ النَّخْلِ وسَعَفِهِ ، وبابُهُ مَفْتوحٌ عَلى الْمَسْجِدِ ، قَدْ أُسْدِلَتْ عَلَيْهِ سِتارَةٌ مِنَ الشَّعْرِ ، و وُضِعَ فيهِ فِراشٌ مِنْ

جِلْدٍ ، حَشْوُهُ لِيفٌ .

وفي هَذا البَيْتِ البَسيطِ المُتَواضِعِ نَضِجَتْ شَخْصِيَّةُ عائِشَةَ ، واسْتَحْصَدَتْ خِبْرَتُها ، واسْتَحْكَمَتْ تَجْرِبَتُها ، وتَفَتَّحَتْ مَواهِبُها ؛ فَهِيَ تَدْرُجُ تَحْتَ بَصَرِ النَّبِيِّ الأَمينِ وسَمْعِهِ ، وفي رِعايَتِهِ و عِنايَتِهِ ، حَتّى كانَ لَها هَذا الشَّأْنُ العَظيمُ في حَياةِ الرَّسولِ ﷺ وفي تاريخِ المُسْلِمينَ .

ولَمْ تَشْعُرِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ بِشَيْءٍ مِنَ الغَيْرَةِ مِنْ زَوْجَةِ الرَّسولِ الكَريمِ « سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ » ، الَّتي كانَتْ تَعيشُ إلى جِوارِها في بَيْتٍ مِنْ بُيوتِ الرَّسولِ الحَبيبِ ، والَّتي تَزَوَّجَها في اليَوْمِ الَّذي خَطَبَ فيهِ عائِشَةَ ، فَما كانَ يَدورُ بِخَلَدِها أَنَّ لِـ « سَوْدَةَ » مَكانًا كَبيرًا في قَلْبِ الزَّوْجِ الرَّسولِ . لَكِنَّ الغَيْرَةَ الَّتي كادَتْ تَعْصِفُ بِها عَصْفًا شَديدًا - كانَتْ مِنَ السَّيِّدَةِ خَديجَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) ، تِلْكَ الَّتي اسْتَأْثَرَتْ بِقَلْبِ الرَّسولِ ﷺ زُهاءَ رُبْعِ قَرْنٍ ، لَمْ تُشارِكْها فيهِ امْرَأَةٌ أُخْرى ، ولا تَزالُ ذِكْراها مِلْءَ نَفْسِهِ

وقَلْبِهِ ، ولا يَزالُ طَيْفُها مِلْءَ سَمْعِهِ وبَصَرِهِ . إنَّهُ يَبْعَثُ بِنَصيبٍ مِنَ الأُضْحِيَّةِ إلى صاحِباتِها ، ويَسْمَعُ صَوْتَ أُخْتِها هالَةَ ، فَيَهِشُّ لَهُ ، ويَبْتَهِجُ بِهِ ، ويَقولُ : « إنَّ فيهِ مِنْ صَوْتِ خَديجَةَ . »

ولَمْ تَسْتَطِعْ عائِشَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ شَبابِها الغَضِّ ، ونَضْرَتِها اليانِعَةِ ، وذَكائِها اللَّمّاحِ - لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَشْتَفِيَ مِنْ خَديجَةَ وذِكْراها ، بَلْ إِنَّهُ ﷺ غَضِبَ غَضَبًا شَديدًا حينَ قالَتْ عائِشَةُ عَنْها : « إنْ هِيَ إلا عَجوزٌ حَمْراءُ الشِّدْقَيْنِ ، أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْها . » وكانَ رَدُّهُ : « واللهِ ، ما أَبْدَلَني اللهُ خَيْرًا مِنْها : آمَنَتْ بي حينَ كَذَّبَني النّاسُ ، و واسَتْني بِمالِها ، ورَزَقَني اللهُ مِنْها البَنينَ والبَناتِ . »

فانْكَفَأَتْ عائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْها - في نَفْسِها ، وعَزَّ عَلَيْها أَلا تُنْجِبَ لِلرَّسولِ الحَبيبِ البَنينَ والبَناتِ ، في حينَ أَنْجَبَتْ لَهُ « عَجوزُ قُرَيْشٍ » ، كَما كانَتْ تُسَمِّيها ،

وهِيَ تُدْرِكُ مَدى حِرْصِ قَوْمِها عَلى الوَلَدِ ، واعْتِزازِهِمْ بِهِ . وما عَصَمَها مِنَ اليَأْسِ والضّيقِ إلا إيمانُها بِرَبِّها ورَسولِها ، ويَقينُها بِأَنَّ قَضاءَ اللهِ لا بُدَّ مِنَ الرِّضا بِهِ ، والصَّبْرِ عَلَيْهِ .

وكانَ في وُسْعِها أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ بَناتِ خَديجَةَ بِنتًا لَها ، لَكِنَّها كانَتْ تَرى في كُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ مَلامِحَ خَديجَةَ ، بَلْ تَكادُ تَرى كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ خَديجَةَ ذاتَها .

ولَعَلَّ شَوْقَها إلى الإنجابِ ، وحَنينَها إلى الوَلَدِ ، هُوَ الَّذي يُبَرِّرُ غَيْرَتَها الشَّديدَةَ مِنْ « مارِيَةَ » المِصْرِيَّةِ ، حينَ أَنْجَبَتْ « إبراهيمَ » ، فَأَخَذَهُ الرَّسولُ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ ، شَغوفًا مُتَعَلِّقًا بِهِ ، وقَرَّبَهُ مِنَ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ ، وقالَ لَها : « انْظُري ، يا عائِشَةُ ، أَلَيْسَ إبراهيمُ شَبيهًا بي ؟ »

فَتَمَلْمَلَتْ عائِشَةُ ، ودَمْدَمَتْ بِكَلامٍ غَيْرِ مُبينٍ ، وتَجافَتْ عَنِ الجَوابِ .

ولَحَظَ الرَّسولُ الحَبيبُ شُحوبَ عائِشَةَ ، وأَدْرَكَ

غَيْرَتَها ، ولَهْفَتَها عَلى الإنْجابِ ، وأَحَسَّ شَوْقَها المُتَحَرِّقَ إلى الأُمومَةِ ، فَتَرَفَّقَ بِها ، وضاعَفَ مِنْ مُواساتِها ، وأَخَذَها بِالمُوادَعَةِ والحَنانِ ؛ كَيْ يَجْبُرَ هَذِهِ النَّفْسَ الكَسيرَةَ .

واسْتَطاعَتْ عائِشَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْها – أَنْ تُرْضِيَ عاطِفَةَ الأُمومَةِ ، وأَنْ تُفَرِّجَ عَنْ نَفْسِها ما تُعانيهِ مِنْ حِرْمانٍ ، فاتَّخَذَتِ ابْنَ أُخْتِها أَسْماءَ « عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ » ابْنًا لَها ، وبِهِ كانَتْ تُكَنّى فَيُقالُ لَها « أُمُّ عَبْدِ اللهِ » .
وحينَ ماتَ أَخوها عَبْدُ اللهِ ضَمَّتْ إِلَيْها ابْنَهُ القاسِمَ وابْنَتَهُ الطِّفْلَةَ . وكانَ القاسِمُ يَقولُ : « ما رَأَيْتُ قَطُّ أُمًّا أَبَرَّ مِنْها ! »

وتَزَوَّجَ الرَّسولُ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ زَوْجَةٍ ، وجِئْنَ إلى بُيوتِ الرَّسولِ الكَريمِ مُقيماتٍ إلى جِوارِ عائِشَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) ، فَما حَفَلَتْ بِهِنَّ ، ولا لَسَعَتْها الغَيْرَةُ مِنْ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، فَقَدْ كانَتْ تَعْلَمُ مَقامَها ومَكانَها في قَلْبِ الرَّسولِ الكَريمِ ، وكُنَّ يَعْرِفْنَ لَها ذَلِكَ . غَيْرَ أَنَّ

عَروسًا ذاتَ حَسَبٍ ونَسَبٍ ، وذاتَ جَمالٍ أَخّاذٍ - حَرَّكَتِ الغَيْرَةَ في نَفْسِ عائِشَةَ ، وخَشِيَتْ مُنافَسَتَها ، فاجْتَهَدَتْ في أنْ تَتَخَلَّصَ مِنْها فَوْرَ وُصولِها ، ودَبَّرَتْ في ذلِكَ مَكيدَةً لَمْ تَتَنَبَّهْ لها العَروسُ القادِمَةُ ؛ فَقَدِ اتَّفَقَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ مَعَ باقي زَوْجاتِ الرَّسولِ الكَريمِ في أَنْ تَقولَ لِلرَّسولِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِها : « أَعوذُ باللهِ . »

و وَقَعَتِ العَروسُ في الشَّرَكِ الَّذي نُصِبَ لَها ، فَما إنْ رَأَتِ الرَّسولَ الكَريمَ قادِمًا نَحْوَها - حَتّى قالَتْ ما أَوْصَتْهُ بِها نِساؤُهُ : « أَعوذُ باللهِ . »

فَقالَ لَها ﷺ : « لَقَدْ عُذْتِ بِمُعاذٍ . »

وتَرَكَها تَعودُ إلى أَهْلِها . ولَمّا حاوَلَ أَهْلُها أَنْ يُعيدوها إِلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ عَرَفوا ما وَقَعَتْ فيهِ مِنْ كَيْدٍ ومَكْرٍ ، و وَضَّحوهُ لِلرَّسولِ الأَمينِ ، ابْتَسَمَ وقالَ : « إِنَّهُنَّ صَواحِباتُ يُوسُفَ ، وإِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظيمٌ . »

ولَمْ تَعُدِ العَروسُ الجَميلَةُ « أَسماءُ بِنْتُ النُّعْمانِ الكِنْدِيَّةُ »

إلى بَيْتِ الرَّسولِ الكَريمِ . وهَكَذا تَخَلَّصَتْ مِنْها السَّيِّدَةُ عائِشَةُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ لَها في بَيْتِ الرَّسولِ مُقامٌ !

* * *

وشَرَحَ اللهُ صَدْرَ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْها - لِلْعِلْمِ ، وحِفْظِ الحَديثِ النَّبَوِيِّ والتَّفَقُّهِ فيهِ ، وتَذَوُّقِ الشِّعْرِ وحِفْظِهِ ، والتَّزَوُّدِ بِعِلْمِ الفَرائِضِ (الميراث) ، حَتّى أَصْبَحَتْ حُجَّةً في الدِّينِ ، يَلْجَأُ إِلَيْها صَحابَةُ الرَّسولِ الكَريمِ ، يَسْتَفْتونَها ، ويَسْأَلونَها ما عِنْدَها مِنَ الحَديثِ النَّبَوِيِّ الشَّريفِ ، كَما عَكَفَتْ عَلى مَعْرِفَةِ أَنْسابِ العَرَبِ ، حَتّى بَلَغَتْ في ذلِكَ كُلِّهِ ذُرْوَةً سامِقَةً .

يَقولُ عَنْها الزُّبَيْرُ بْنُ العَوّامِ : « ما رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ النّاسِ أَعْلَمَ بِالقُرْآنِ ، ولا بِفَريضَةٍ ، ولا بِحَلالٍ وحَرامٍ ، ولا بِحَديثِ العَرَبِ ، ولا بِنَسَبٍ ، مِنْ عائِشَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) . »

ويَشْهَدُ لَها أَبو موسى الأَشْعَرِيُّ شَهادَةً دَقيقَةً قَيِّمَةً

بقَوْلِه : « ما أُشْكِلَ عَلَيْنا – أَصْحابَ مُحَمَّدٍ ﷺ – حَديثٌ قَطُّ ، فَسأَلْنا عائِشَةَ ؛ إلا وَجَدْنا عِنْدَها مِنْهُ عِلْمًا . »

ولا شَكَّ في أَنَّ الحِفْظَ والرِّوايَةَ يَحْتاجانِ إلى ذاكِرَةٍ قَوِيَّةٍ ، وحافِظَةٍ لاقِطَةٍ واعِيَةٍ . وكانَتْ عائِشَةُ ذاكِرَةً شابَّةً دَخَلَتْ بَيْتَ الرَّسولِ الكَريمِ فَوَعَتْ ما سَمِعَتْ ورأَتْ . ولَعَلَّ هذا حِكْمَةُ زَواجِ النَّبِيِّ ﷺ بها وهِيَ صَغيرَةٌ ؛ كَيْ تَحْفَظَ لِلْمُسْلِمينَ سُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ .

وكَما شَرَحَ اللهُ صَدْرَها لِلْعِلْمِ والتَّبَحُّرِ فيهِ ، شَرَحَ اللهُ صَدْرَها لِلْبِرِّ بالفُقَراءِ والمَساكينِ ، وغِياثِ المُحْتاجينَ ، حَتّى سارَتْ بِجُودِها الرُّكْبانُ ، ورُوِيَتْ في ذَلِكَ أَخْبارٌ كَثيرَةٌ . فَقَدْ بُعِثَ إلَيْها مَرَّةً بِغِرارَتَيْنِ فيهما ثَمانونَ أَوْ مائةُ دِرْهَمٍ ، فَدَعَتْ بِطَبَقٍ ، وجَلَسَتْ تُقَسِّمُ المالَ بَيْنَ المُحْتاجينَ ، وهِيَ يَوْمَئِذٍ صائِمَةٌ ، فَلَمّا أَمْسَتْ قالَتْ لِجارِيَتِها : « هَلُمّي فَطْري . »

فَجاءَتْها بِخُبْزٍ وزَيْتٍ ، وقالَتْ لَها : « أَما اسْتَطَعْتِ

وأَنْتِ تُقَسِّمينَ المالَ أَنْ تَحْتَفِظي بِدِرْهَمٍ نَشْتَري بِهِ لَحْمًا فَنُفْطِرَ عَلَيْهِ ؟ »

فَقالَتْ لَها السَّيِّدَةُ عائِشَةُ : « لا تلوميني . لَوْ كُنْتِ ذَكَّرْتِني لَفَعَلْتُ . »

وهَكَذا اسْتَراحَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ مِنْ أَثْقالِ الحَياةِ الدُّنْيا وزينَتِها ، واقْتَدَتْ بِزَوْجِها ونَبِيِّها في سيرَتِهِ وسُنَّتِهِ ، وانْطَبَعَتْ بِطَوابِعِهِ ، فكَما كانَ يُرَقِّعُ ثَوْبَهُ ، ويَخْصِفُ نَعْلَهُ – كانَتْ تُرَقِّعُ ثَوْبَها وتَخْصِفُ نَعْلَها ، وتَأْكُلُ ما يَحْضُرُها مِنْ طَعامٍ ، كَما كانَ ﷺ يَفْعَلُ . ورَضِيَتْ بأَنْ تَرْقى في ذَكائِها وعِلْمِها إلى الذُّرْوَةِ الَّتي تَرَبَّعَ فيها أَمْثالُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ، وأَبي هُرَيْرَةَ ، وغَيْرِهِما مِنْ عُلَماءِ الصَّحابَةِ .

* * *

بَيْدَ أَنَّ حَياتَها الزَّوْجِيَّةَ الَّتي دامَتْ زُهاءَ عَشْرِ سَنَواتٍ ، وكانَتْ مُمْتَلِئَةً بِالحُبِّ والحَنانِ ، والبِرِّ و الأَمانِ – لَمْ تَخْلُ

مِنْ بَعْضِ السُّحُبِ العابِرَةِ ، إلى صَفْوِ هَذِهِ السَّماءِ الطّاهِرَةِ . وكانَ الرَّسولُ الكَريمُ بِحَنانِهِ وبِرِّهِ ، وحِلْمِهِ وسَماحَةِ خُلُقِهِ ، يُبَدِّدُ هَذِهِ السُّحُبَ العابِرَةَ ، فَتَعودُ السَّماءُ مَجْلُوَّةً صافِيَةً . غَيْرَ أَنَّ غَفْلَةً غَفَلَتْها السَّيِّدَةُ عائِشَةُ جَرَّتْ عَلَيْها هَمًّا عَظيمًا ، وكَمَدًا مُقيمًا . فَقَدْ كانَتْ في صُحْبَةِ الرَّسولِ ﷺ في غَزْوَةِ بَني الْمُصْطَلَقِ ، وعِنْدَما كانَ الْمُسْلِمونَ عائِدينَ إلى الْمَدينَةِ بَعْدَ الغَزْوَةِ - نَزَلوا مَنْزِلاً يَسْتَريحونَ فيهِ ، وخَرَجَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ لِبَعْضِ شَأْنِها ، وهُناكَ انْفَرَطَ عِقْدُها فانْشَغَلَتْ بِالبَحْثِ عَنْ حَبّاتِهِ والْتِقاطِها ، فَلَمّا جاءَتِ الْمَوْقِعَ الَّذي كانوا فيهِ لَمْ تَجِدْ أَحَدًا ؛ فَقَدْ تَحَرَّكَ الجَيْشُ بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ ، ورَفَعَ القَوْمُ هَوْدَجَها فَوَضَعوهُ فَوْقَ البَعيرِ ، دونَ أَنْ يَشْعُروا بِعَدَمِ وُجودِها ؛ فَقَدْ كانَتْ خَفيفَةً لَمْ تَكْتَنِزْ لَحْمًا بَعْدُ ، وحينَئِذٍ قَبَعَتْ في مَكانِها ، لَعَلَّ القَوْمَ يَشْعُرونَ بِغِيابِها فَيَرْجِعوا إلَيْها .

وكانَ « صَفْوانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ » قَدْ تَخَلَّفَ عَنِ الرَّكْبِ ، كَما أَمَرَهُ الرَّسولُ القائِدُ ، لِيُلَمْلِمَ بَقايا الجَيْشِ بَعْدَ رَحيلِهِ ، فَأَبْصَرَ شَبَحًا قابِعًا لا يَريمُ ، فَقالَ : « إنّا للهِ وإنّا إلَيْهِ راجِعونَ ! » ثُمَّ دَنا قَليلاً فَعَرَفَ أَنَّها السَّيِّدَةُ عائِشَةُ ، وكانَ يَراها قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْها الحِجابُ فَأَناخَ بَعيرَهُ ، وتَنَحّى عَنْهُ لِتَرْكَبَ ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِزِمامِهِ ، وراحَ يَقودُهُ في طَريقِهِ إلى الْمَدينَةِ .

ولَمّا دَخَلَ الْمَدينَةَ في وَضَحِ النَّهارِ ، وكانَ الرَّسولُ القائِدُ وجَيْشُهُ قَدْ سَبَقوا إلَيْها ، ورَآهُ كَبيرُ الْمُنافِقينَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ » راحَ يُرْجِفُ في الْمَدينَةِ ، ويُطْلِقُ الشّائِعاتِ على السَّيِّدَةِ عائِشَةَ ، ويَتَّهِمُها في شَرَفِها وعَفافِها . وتَناقَلَ الْمُرْجِفونَ أَوِ الْمُنافِقونَ هَذا الإفْكَ الَّذي أَطْلَقَهُ كَبيرُهُمْ ، وراحوا يُرَوِّجونَ لَهُ في جَميعِ أَنْحاءِ الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ !

وكانَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ قَدْ أَلَمَّ بِها بَعْضُ الْمَرَضِ ،

فَلَزِمَتِ الفِراشَ ، ولَحَظَتْ أنَّ الرَّسولَ الحَبيبَ يَتَجافاها ، وكانَ إذا دَخَلَ يَقولُ : « كَيْفَ تيكُمْ ؟ » دونَ أنْ يَذْكُرَها باسْمِها ؛ فَضاقَتْ نَفْسُها ، وتَحَيَّرَتْ في جَفاءِ الرَّسولِ الْحَبيبِ لَها ، ولَمْ تُدْرِكْ لَهُ سَبَبًا ؛ فَهِيَ لا تَعْلَمُ ما أطْلَقَهُ الْمُنافِقونَ في الْمَدينَةِ ، فاسْتَأْذَنَتِ الرَّسولَ الْحَبيبَ في أنْ تُمَرَّضَ في بَيْتِ أبَوَيْها ، فَأذِنَ لَها .

ولَمّا انْتَقَلَتْ إلى بَيْتِ أبَوَيْها ، لَحَظَتْ حُزْنًا دَفينًا ، تَرْتَسِمُ آياتُهُ عَلى مَلامِحِ أبيها ، وأبْصَرَتْ وُجومًا عَلى أُمِّها ، ولَكِنَّها – أيْضًا – لَمْ تَعْرِفْ لَهُ سَبَبًا .

ولَمْ يَتَخَلَّ الرَّسولُ الكَريمُ عَنْ صاحِبِهِ ، ولَمْ تَتَغَيَّرْ مُعامَلَتُهُ لَهُ ، ولَمْ يَتَأثَّرْ ما يُكِنُّهُ لَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ والْحُبِّ ، فَظَلَّ عَلى ما كانَ عَلَيْهِ ، يَذْهَبُ إلى بَيْتِ صاحِبِهِ أبي بَكْرٍ كُلَّ يَوْمٍ ، ويَسْألُ عَنْ عائِشَةَ بِالصِّيغَةِ نَفْسِها : « كَيْفَ تيكُمْ ؟ » حَتّى كانَ يَوْمٌ خَرَجَتْ فيهِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ لِحاجَتِها ، وكانَتْ مُتَّشِحَةً بِالسَّوادِ ، فَلَمْ يَعْرِفْها النِّسْوَةُ ،

وأخَذْنَ يَلْغَطْنَ بِحَديثِ الإفْكِ الَّذي أشاعَهُ الْمُنافِقونَ في الْمَدينَةِ ، وحينَئِذٍ أدْرَكَتْ وَوَعَتْ .

ولَمّا رَجَعَتْ إلى البَيْتِ عاتَبَتْ أُمَّها في أنَّها لَمْ تُبْلِغْها ما يُذيعُهُ الْمُرْجِفونَ في الْمَدينَةِ ، فَحاوَلَتْ أنْ تُهَوِّنَ عَلَيْها الأمْرَ ، وتُسَرِّيَ عَنْها الْمُصيبَةَ .

وفي يَوْمٍ جاءَ الرَّسولُ الكَريمُ إلى بَيْتِ صاحِبِهِ ، وجَلَسَ كَعادَتِهِ ، وإذا هُوَ يَأْخُذُهُ ما يَأْخُذُهُ عِنْدَ نُزولِ الوَحْيِ عَلَيْهِ مِنَ الشِّدَّةِ وتَفَصُّدِ العَرَقِ مِنْ جَبينِهِ ، وما إنِ انْتَهى الوَحْيُ حَتّى قالَ ﷺ : « أبْشِري ، يا عائِشَةُ ؛ فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ . »

فَتَهَلَّلَ وَجْهُ أبي بَكْرٍ بِشْرًا ، ونَطَقَ وَجْهُ أُمِّ رومانَ بِالسُّرورِ ، واسْتَراحَتْ نَفْسُ عائِشَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) ؛ فَقَدْ كانَتْ موقِنَةً أنَّ اللهَ لَنْ يَتَخَلّى عَنْها ، وإنْ كانَتْ لَمْ تَتَوَقَّعْ أنْ يُنْزِلَ فيها قُرآنًا يُتْلى .

وقالَتْ لَها أُمُّها : « قومي إلى رَسولِ اللهِ ﷺ . » فَتَمَنَّعَتْ وقالَتْ : « ما بَرَّأَني هُوَ ، ولَكِنْ بَرَّأَني اللهُ (عَزَّ وجَلَّ) . »

وهَمَّ أبو بَكْرٍ أنْ يُعنِّفَها ، و لكِنَّ الرَّسولَ الحبيبَ أَمَرَهُ
أَنْ يَتْرُكَها وشأْنَها ، ثُمَّ دَخلَ عَلَيْها ، وجَلَسَ إلى جِوارِها ،
ولَمَسَ ثوْبَها ، وربَّتَ بيَدِهِ عَلى كَتفِها ، فَرَدَّتْ يَدَهُ
وتَمرَّدَتْ غَضْبَى ، فَما زالَ بها يَترَضّاها حَتّى رَضِيَتْ ،
وأَقْبلَتْ عَلَيْهِ مُنْشَرِحَةَ الصَّدْرِ باسِمَةً ، بَعْدَ أنِ انقَضتِ
العاصِفَةُ . وعادَتْ عائِشَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) إلى مَكانِها
في بَيْتِ الرَّسولِ ﷺ تَحُفُّ بِها هالَةٌ مِنْ آياتِ سورَةِ النُّورِ ،
ويَزْدَهيها النَّصْرُ الإلَهِيُّ ، الَّذي جَعَلَ بَراءَتَها قُرآنًا يَتعَبَّدُ
الْمُسْلمونَ بتِلاوَتِهِ إلى يَوْمِ الدِّينِ !

عادَتْ تَمْرَحُ في كَنَفِ الرَّسولِ الحَبيبِ ، وفي ظِلالِ
حُبِّهِ المَكينِ ، وتُرَدِّدُ عَلى مَسامِعِ غَيْرِها مِنْ ضَرائِرِها
قَوْلَهُ لَها : « حُبُّكِ ، يا عائِشَةُ ، في قَلْبي كالعُرْوَةِ الوُثْقى . »

وتَقولُ لَهُنَّ : « أَيُّ زَوْجَةٍ أَحْظَى عِنْدَ زَوْجٍ مِنّي ؟ »

وتَسْتَعيدُ سُؤالَ عَمْرِو بْنِ العاصِ لِلرَّسولِ ﷺ : « أيُّ
النّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ »

وجَوابَ الرَّسولِ الحَبيبِ لَهُ : « عائِشَةُ . »

قالَ عَمْرٌو : « فَمِنَ الرِّجالِ ؟ »

فَأَجابَهُ الرَّسولُ الكَريمُ : « أبوها . »

* * *

ومَدَّ اللهُ في عُمُرِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) ،
فَعاشَتْ بَعْدَ وَفاةِ الرَّسولِ الحَبيبِ في حِجْرِها ، ودَفْنِهِ في
حُجْرَتِها - سَبْعًا وأَرْبَعينَ سَنَةً ، وأَقامَتْ بَعْدَهُ في الْحُجْرَةِ
الْمُجاوِرَةِ لِحُجْرَةِ قَبْرِهِ ، فَكانَتْ تَزورُهُ كُلَّ يَوْمٍ ، وتَسْتَمِدُّ
مِنْ ذِكْراهُ جَلَدًا عَلى احْتِمالِ مَكارِهِ الحَياةِ ، والنُّهوضِ
بأَعْبائِها .

ولَبِثَتْ بَعْدَهُ ﷺ مَفْزَعَ القُلوبِ في الحَنينِ إلَيْهِ ، وكأَنَّها
بَقِيَّةُ وُجودِهِ ، ومُعَلِّمَةُ الدِّينِ بَعْدَهُ . وغَدَتْ مَرْجِعًا
لِلرِّجالِ والنِّساءِ في رِوايَةِ الحَديثِ وفِقْهِهِ ، ومُشْكِلاتِ
التّاريخِ والآدابِ والأَنْسابِ ، ونَفَذَتْ مَعْرِفَتُها إلى طِبِّ

زَمانِها و مَواقِعِ النُّجومِ عِنْدَ العَرَبِ ، فَأَلَمَّتْ بِها .

وشَهِدَتْ بَوادِرَ الفِتْنَةِ في عَهْدِ عُثْمانَ بْنِ عَفّانَ ، وخَرَجَتْ لِتَذودَ عَنْهُ الْمُحاصِرينَ ، وخاضَتْ في أُمورِ السِّياسَةِ ، ولَكِنَّها كانَتْ دائِمًا الْمَرْجِعَ والْمَلاذَ لِكُلِّ الْمُؤْمِنينَ . . حَتّى كانَتْ وَفاتُها لَيْلَةَ الثُّلاثاءِ لِسَبْعَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ الْمُعَظَّمِ سَنَةَ ثَمانٍ وخَمْسينَ مِنَ الهِجْرَةِ ، فاجْتَمَعَ النّاسُ لِتَوْديعِها ، ولَمْ تُرَ لَيْلَةٌ أَكْثَرَ ناسًا مِنْها ، وخَرَجَ النّاسُ يَحْمِلونَ الْمَشاعِلَ ، لِيَدْفِنوها مِنْ لَحْظَتِها ، كَما كانَتْ وَصِيَّتُها ، وغَصَّ الْمَسْجِدُ النَّبَوِيُّ بِالْمُشَيِّعينَ ، وصَلّى عَلَيْها الصَّحابِيُّ الجَليلُ أَبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وحَزِنَ النّاسُ لِفِراقِها ، وبَكَوْها بُكاءً شَديدًا ، وكانَ فيمَنْ بَكى عَلَيْها عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ ، فَلَمّا بَلَغَ ذَلِكَ مُعاوِيَةَ ابْنَ أَبي سُفْيانَ ، وكانَ والِيًا عَلى بِلادِ الشّامِ ، قالَ لَهُ :

« أَ تَبْكي عَلى امْرَأَةٍ ؟»

فَأَجابَهُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « إِنَّما يَبْكي عَلى أُمِّ الْمُؤْمِنينَ بَنوها ، وأَمّا مَنْ لَيْسَ لَها بِابْنٍ فَلا يَبْكي !»

المحتويات

الصفحة

٤-٣١ الصِّدِّيقُ : أبو بَكْر

٣٢-٦٤ الفاروقُ : عُمَرُ بْنُ الخَطّاب

٦٥-٩٥ أمُّ الْمُؤْمِنينَ : عائِشَةُ بِنْتُ أبي بَكْر الزَّوْجَةُ الحَبيبَةُ



سلسلة تربوية تثقيفية إسلامية

رياض الإيمان شذا فواح من حياة الرسول ﷺ وصحابته، يضوع في الآفاق، فيغمر القلوب بعطره، ويحيي النفوس بصدقه؛ فتجد فيه الأسوة التي تفتقدها، والقدوة التي تنشدها؛ فقد كانت حياتهم التطبيق العملي لما أنزله الله على رسوله.

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

١- المولد والنشأة
٢- الرسول في المدينة
٣- الفتح والوفاة
٤- حاضنة الإسلام
٥- سابق الحبشة
٦- صديق القرآن
٧- الشهيد الحي
٨- الباحث عن الحق
٩- أم حبيبة
١٠- الراكب المهاجر
١١- حواريّ الرّسول
١٢- صاحب الخدعة
١٣- فاتح مصر
١٤- أمين الأمّة
١٥- الشّهيد الطّائر
١٦- فاتح إفريقية
١٧- الصِّدّيق والفاروق
١٨- سيف الله المسلول

ISBN: 977-16-0412-0



الشركة المصريّة العالميّة للنشر - لونجمان

مكتبة لبنان ناشرون